الطبعة
2
رواية
المُتَلَبِّسُ
RED-HANDED
-بعض الأسرار تظل مدفونة ... حتى تجد من يُخرجها إلى النور-
سعد عايد البدر
ساحر الكتب
الكتب

المُتلبّس

سعد عايد البدر

الطبعة الأولى , القاهرة ٢٠٢٤ م

غلاف : محمد دربالة

رقم الإيداع : 22548/ 2024

I.S.B.N: 978-977-488- 988-4

جميع حقوق النشر محفوظة, ولا يحق لأي شخص أو مؤسسة أو جهة إعادة إصدار هذا الكتاب, أو جزء منه, أو نقله بأي شكل من الأشكال , أو وسيلة من وسائل نقل المعلومات, ولا يجوز تداوله إلكترونيًا نسخًا أو تسجيلًا أو تخزينًا, دون إذن خطي من الدار

اكتب

داراكتب للنشر والتوزيع

العنوان : 12 ش عبد الهادي الطحان , من ش الشيخ منصور, المرج الغربية , القاهرة , مصر

هاتف : 01111947957

بريد إلكتروني : daroktob1@yahoo.com

جميع الآراء الواردة في هذا الكتاب تعبر عن رأي كاتبها, ولا تعبر بالضرورة عن رأي دار النشر.

إهداء

إلى زوجتي أم يوسف

تقديراً واعجاباً وانبهاراً لتحملها أخطائي طوال ١٤ عاماً

مقدمة

أعلم أن معظمكم لا يفتح تلك المقدمة التي غالباً ما تكون طويلة مملى .. لكن من يمر من هنا أطلب منه أن يترك هاتفه وجميع المؤثرات الأخرى ويركز فيما كتب في هذه الرواية .. فإن غاب تركيزه لوهلة .. سيقول ممتعضاً في النهاية

(هذا الكتاب سيء جداً) !!؟

(١)

كان يشعر بالتعب الشديد، لكنّه يعرف أن تحقيق الشرطة معه إجراءٌ قانونيٌ لا مفرّ منه. كان يرقد في سريره بالمستشفى عندما دخل المُحقِّق ومُساعده:

- هل أنت مُستعدٌ يا أستاذ طلال؟.

أومأ برأسه بتعب، فما زالت السحجات تُسبّب له آلامًا رهيبةً.

جلس المُحقِّق ومُساعده، وبدأ بالاستجواب.

- اسمك؟.

- طلال الدسيري.

- السن والمهنة؟.

- 45 سنة، موظف حكومي في الإدارة المالية لإحدى الوزارات.

- ما الذي حدث ليلة البارحة بالضبط؟.

قال طلال بضيق:

- تقصد الحادثة؟.

- أجل، وما أدى للحادثة بطبيعة الحال.

بدا الشرود على وجهه. نعم، لقد غادر الدوام كعادته في موعد الانصراف الرسمي، لكنّه لم يذهب إلى منزله الخاوي مباشرةً، بل دار على عِدة محلات يبحث عن هدية مناسبة لابنته فدوى التي كانت تُكمل الخامسة عشرة من عمرها، وهو يحب أن يقدّم إليها هديتها كما

تعوّد منذ مولدها السعيد. الفرق الوحيد أن طريقة استلامها الهدية قد اختلفت عن السابق. فمنذ عيد ميلادها الحادي عشر، كان يتوقّف قبل غروب الشمس بقليل، أمام فيلّا جدها الضخمة، التي تقطن فيه هي وأمها أوار وأخوها الأكبر خالد، حيث يغادر سيارته القديمة، متأملًا شجرة السدرة التي غُرست داخلَ حديقة الفيلا، لكن فروعها كانت تنتصب كالرماح خارج السور بقليل، وهو ما يُتيح له أن يتأمّل الشارع شبه الخالي حوله بحذر، ثمّ يقف على مُقدمة سيارته القديمة، ويمسك بفزع معين طالما كان رفيقه طوال خمس سنوات مضت، ثم يُعلّق فيه الهدية بإحكام. ثمّ يعود للسيارة ويتراجع عدّةَ أمتار للخلف، ثم يمكنه أن يراقب الجوّ، حتى تظهر فدوى مُتسلّقةً الشجرة من الداخل، تأخذ هديتها، وتحتضنها إلى صدرها، وهي تلوّح له بيدها، ثم تنصرف والأسى على وجهها.

حين حدث ما حدث منذ خمس سنوات، احتضنها وهمس في أذنها:

- في كل عيد ميلاد لكِ سأضع هديتك مُعلّقةً في شجرة السدرة، قبل غروب الشمس بقليل. احرصي أن تراقبيني من نافذة حجرتك.

هذه كانت رسالته الوحيدة لها،وهو يعلم أنها مُراقَبة بشدة، ولن تُترَك لها فرصةٌ لتراسلَه أو تحدثه هاتفيًا.

رقابةُ جدها الوغد تفوق الخيال!

لكن ليس كل مرة تسلَم الجرّة.

ولقد تحطمت الجرّة ذاتها إلى ألف قطعة ليلة أمس!

كان يرى ابنته -بعين الخيال- وقد غدت صبية جميلة في سن المراهقة تتسلق الشجرة، وقد شُدِهَ بالتغييرات الكبيرة التي جرت لها أثناء عام كامل. وسيبدو أن المقولة بأن الفتيات يكبرن بسرعة أكثر من الفتيان صحيحة! الحقيقة أن دموعه سالت من عينيه دون أن يشعر، حتى شعر ببلل على فخذيه فانتبه، ومسح دموعه، خشية أن يراه أحد، فيتساءل عن المخبول الذي يقضي وقته بالبكاء في سيارته، وهو يحدّق إلى الفيلا المُنتصبة أمامه في شموخ، ويبكي لمجرد تخيُّل ابنته في ذهنه، رغم أنه سيراها -كما هو مفترض-بعد لحظات!

كانت تفاصيل بناء الفيلا تدفع لذهنه بعض المعلومات التي يعرفها عنها، فهو لا يزال يتذكر أول مرة يقف برهبةٍ أمامه، ويتساءل في سره: إلى أي مدى يصل ثراء والد الفتاة التي يودُّ خطبتها؟

فيلا قديمة هي -كما أخبره ظافر نفسه في ساعة صفاء نادرة- بُنيَت منذ ثلاثين سنة أو أكثر، وكانت المنطقة نفسها خالية إلا من بيت قديم هو بيت ظافر نفسه، أو بيت عائلته على وجه الدقّة، وأنه قرّر هدمه وبناءَه من جديد على الطراز الأوروبي، الذي لم يكن مألوفًا، وقد كلّف أحد المهندسين الأجانب في ذلك، وهو فرناندو خوسيه، والذي كان مُقيمًا لسنوات، قبل أن يُقرر في عامه الأخير العودة لوطنه إسبانيا، لكن ظافر اقتنص فرصة وجوده في ذلك العام لتصميم فيلته، ولم يكتفِ بذلك، بل كانت رغبته في وجود حديقة وارفة الظلال تُحيط بالفيلا المُقامة على قطعة أرض شاسعة. وقد تحقّقت أمنيته بفضل الأموال الطائلة التي دفعها، ثم بفضل اختياره لأناسٍ أكفاء في التخطيط والتنفيذ.

ذلك الرجل هو عدوُّه حاليًا، ظافر المنجد، الرجل الذي بلغ من الكِبَر عتيًا، لكن ما زال مشدود القامة، حادّ الملامح، تجري نضارة الشباب في مُحيّاه، له عينا صقر، ومِشية جنرال، ومنذ قابله لأول مرة من ستة عشر عامًا، وهو لم يسترح له قط!

الرجل الذي كان سببًا في تدمير زواجه بعد استقراره لسنوات، والذي استطاع بمؤامراته المنسوجة بعناية أن يستميل ابنته إليه وحفيدَيه معها بالتبعية، وقد باءت كل محاولاته لمحاربته بالفشل!

لكَم تمنى أن يترك العَنان للعنف المُضطرم بداخله حتى يتفجر، ويُحطِّم رأس ظافر على أقرب جدار! سيكون سعيدًا بذلك أيّما سعادة. وكان يقول ذلك لزوجته بصراحة (قبل أن يُطلِّقها بالطبع) بلهجة ظاهرها المزاح، وباطنها الجدُّ المخلوط بالمقت:

- أبوكِ أكبر دليل على أن الشياطين موجودة بالفعل! لو أُتيحت لي الفرصة فسوف أقوم بتحطيم رأسه على الجدار لكي أتأكد من ذلك!.

وكانت تبتسم بفتور، وكأنها ترى باطنه بوضوح. انتبه من أفكاره وذكرياته الهادرة كنهر لا يتوقف في ذهنه، على يد تطرق نافذة سيارته، فالتفت بسرعة، وإذا به يرتجف على الرغم منه لرؤية ظافر يقف بعباتٍ بجوار سيارته، وعيناه تقدحان شررًا، وهو يقول:

- أنزل الزجاج.

فعل ذلك بتلقائية، وهو يحدّق إلى الرجل الذي يُكنُّ له كراهيةً لا توصف. قال ظافر بصوت هادئ متعقِّل، لم يفقد صرامته كنصل خنجرٍ حادّ:

- ماذا تفعل هنا يا أستاذ؟.

بحث طلال في ذهنه عن كذبةٍ مُقنعةٍ، إلا أن ظافر قال بحزم وهو يرفع يده:

- لا ترهق نفسك بالكذب، فأنا أعرف لماذا توجد هنا، وفي هذا التوقيت بالذات.

ارتجف قلبه على الرغم منه. قال مُرتبكًا:

- لقد تعطل محرك سيارتي هنا، و.....

توقف طلال عن إكمال الكذبة الخائبة، أمام عينَي ظافر اللتين ترمقانه بازدراء، ومع ذلك لم يتسلل ذلك الاحتقار لصوته وهو يقول:

- تتكلم وأنت جالس في سيارتك، برغم وجودك متلصصًا كاللصوص أمام منزلي.

دفع طلال باب السيارة وخرج.

وقف قبالة العجوز، وهو يتأمل ملامحه. اللعين ما زال كما هو، كأن الزمن لا تسري قوانينه عليه. كان يتخيل أحيانًا أنه سيشيخ ويموت ويتحلّل، يظلُّ ظافر كما هو رمزًا للقسوة، التي لا تلين!

واصل ظافر بذات الصرامة:

- أعرف أنك تنتظر أن ترى فدوى وتُعطيها هديتها، لكنها لا ترغب في ذلك هذا العام وكل الأعوام التالية.

انتفضت شجرة الكراهية بداخله وهو يقول:

- لا تحاول أن تُخرّب ما بيني وبين ابنتي.

رفع ظافر حاجبَه الأيسر مُتهكمًا:

- أخرَب؟! اطمئن. أنت تفعل ذلك بنجاح تامٍّ، حتى إنك لا تحتاج لمساعدة.

كان يرمي لسبب ما كل هذه المصائب إذًا، لا بأس. هو يستحق ذلك. لكن كان من الممكن أن ينتهي الأمر بشكل مُتحضِّر، وتكون هناك فرصة للرجوع، لكنّ ظافر رفض، ونفخ النار في الكير فتأجّجت وساءت الأمور، حتى حدث الانفصال بينه وبين زوجته أوار، بالإضافة إلى أنه مظلوم، ولم يفعل شيئًا سيِّئًا.

قال العجوز:

- ابنتك لا ترغب في رؤيتك بعد الآن.

- أنت كاذب.

هز العجوز كتفيه وهو يبتسم بشماتة:

- لا بأس، يُمكنك أن تسمع ذلك منها مباشرة.

وأشار بيده مناديًا:

- اقتربي يا فدوى.

انتبه أن ابنته كانت قريبةً منه، لكنّها تقف في زاويةٍ لا تَسمح له برؤيتها. الآن تدخل مجال بصره وهي تخطو بثبات. يا لَجمالها! لقد تغيّرت بالفعل. خطر له أن الخاطبين سيقفون في طابور طويل لخطبتها منه.

خطبتها منه أم من جدّها؟ مجرد التفكير في ذلك جعل الدم يغلي

في عروقه.

الآن غدت فدوى أمامه تقف برشاقة. قال بتأثر:

- أوحشتني يا فدوى. كيف حالك يا بنيّتي؟.

قالت بصوت صارمٍ لم يعهده من قبل، وكأنها صارت نسخة مُصغّرة من جدها:

- أنت أبي بيولوجيًا فقط، لكن من أعتبره أبي هو جدّي ظافر. من فضلك توقّف عن المجيء مُجدّدًا. وكُفّ عن تصرفات الصغار هذه!.

***

(٢)

لوهلة لم يصدق ما يسمع. إنها ملامح ابنته فعلًا التي يعرفها ورآها منذ عام، وإن كانت أكبر وأنضج بطبيعة الحال، لكن أين النظرة الطافحة بالشوق إليه، وأين تلويحةُ اليد الصغيرة المُعبِّرة عن إحساس الفقد؟ كل هذا تلاشى في مهبِّ الريح، وغدت ابنته مُجرَّد نسخة باردة مُشوَّهة تذكِّره بفشله كأب!

وجد نفسه يقول مصدومًا:

- ماذا تقولين يا فدوى؟.

ردت بطلاقة مندفعة، وكأن بركانًا مضطرمًا بداخلها يوشك أن ينفجر:

- ما سمعتَه، ولن أكرِّر كلمةً واحدةً. ابتعد عني وعن حياتي. لا أريد رؤيتك مرة أخرى من فضلك.

واستدارت بشموخ، مُتجهةً لبوابة الفيلا، بخطوات ثابتة لم يَشُبها أي اضطراب أو عدم توازن. انتبه في تلك اللحظة أنها خطواتٌ تشبه خطواتِ جدِّها كثيرًا. هل يمكن لعام واحد أن تتحول ابنته لابنة جدِّها؟

ظل يرمقها بعينَين خاويتَين وكأنَّ طَور الصدمة ما زال يتفاعل بداخله، طَور الإنكار اللعين، لكن هذا الطَّور قد انتهى عندما قال ظافر بصوته الجهوري:

كما سمعت بأذنَيك، أرجو ألا تعود مرةً أخرى. اقطع علاقتك نهائيًا بهم. أنت مجرَّد أبٍ لها في الأوراق الرسمية فحسب، لكن بخلاف

ذلك فهم عائلتي، والذين سأترك لهم كل هذه الأموال بعد رحيلي، فبانصرافك عنهم تضمن لهم سعادتهم. هل فهمت؟.

وجد نفسه يومئ برأسه بتلقائيّةٍ، وليس عن اقتناع. رمقه الجدُّ بنظرة أخيرة تفيض بالاحتقار والشفقة في ذات الوقت، ثم استدار كجنرال عسكري وتوجّه لفيلته، التي بدَت أنها تشمت به هي الأخرى بضخامتها المُخيفة!

لم ينتظر طلال حتى يغيب هو الآخر عن ناظريه، لم يحتمل المُكوث ثانيةً في هذا المكان الكئيب، الذي يلتهم كل ذرة أكسجين في الفراغ. وثب إلى سيارته ثم انطلق بها. لا يعرف كيف انطلق بسيارته، ولا كيف تجاوز ذلك المُنعطف الخطير، ولا كيف اندمج في نهر الطريق بين السيارات المنطلقة بسرعة البرق!

قال لنفسه أنه يستحق ذلك. نعم، يستحق، لقد أخطأ وكان خطؤه من النوع الذي لا يُغتفر.

قابل أوار لأول مرة في معرض للفنون التشكيلية، والحقُّ أنه لم يكن هناك لشراء لوحة مثلًا، بل كان لمُقابلة صديق. وجدَها تتأمّل تلك اللوحة، تقف أمام جمالها المُبهر، فبدت هي الأخرى كلوحة بشرية من لحمٍ ودمٍ تَخلب اللُّب، وفي تلك اللحظة حين رآها من جانب وجهه خفق قلبه!

وحين خفق شعر بالذعر، وكان سبب ذعره ينقسم لطبيعته الفوضوية، فكان يقول لأصدقائه أنه من المُستحيل أن يحبّ، وكان أحدهم يرد عليه ساخرًا: بأنه ما دام قال ذلك فسيُحبّ ويحدث ذلك، وكان يقول لنفسه أنه يريد ذلك، إنه يريد تجربة ذلك الإحساس

الساحر كما يصفونه، وقد حدث ما تمنّاه. بعدّة كلمات معها، أدرك أن ثَمّة انسجامًا بينها وبينه. أخذ رقم هاتفها، ثم قضى عدة أشهر يكلّمها. كان قد عرف منها أنّ أباها واحدٌ من أثرياء البلد الكِبار، والحقيقة أنه لم يكن يرمي للزواج منها. كان يترك نفسه للتّيّار، لتجربة الحب ذاتِه، لكنه كان يعلم أن البَوْنَ شاسعٌ بين طبقته الاجتماعية المُتوسطة، وبين طبقتها الاجتماعية الرفيعة لدرجةٍ مخيفة!

لكن المُرعب أكثر أن تلك الفجوة راحت تتلاشى بمرور الوقت في عقله، وغدا وجودها في حياته لا يُمكن الاستغناء عنه، وكلّما قال له عقلُه: تعقّل، صرخ فيه بأنّنا أبناء تسعة، وكلُّنا لآدم وآدم من تراب!

وهكذا ارتدى أفضل ثيابه، وذهب لمُقابلة أبيها، وهنا عادت الفجوة من جديدٍ، أعمقَ وأطولَ وأضخمَ ممّا كانت عليه من ذي قبل، وهذا لمجرّد رؤية فيلا أبيها الفخمة الضخمة المُقامة على ناصية شارع بأكمله، فبدت متفردة تشي بثراء صاحبها المُخيف! دخل الصالة الواسعة الشبيهة بقاعة اجتماعات ضخمة بأحد الفنادق الكبيرة، والتي تُشكّل خمسة أضعاف مساحة شقته كلها تقريبًا! طبعًا كانت الفجوة تتّسع اتّساع المسافة بين المشرق والمغرب! صافحه ظافر بيد قوية، وعينَين ثاقبتَين، ثمّ أشار له بالجلوس بصَلَف. اعتصر طلال نفسَه بحيث لا ينفجر على الرجل المُتعجرِف، وكاد يُخبر ظافر أنه تسرع في هذا الزواج، فالتكافؤ غير موجود أصلًا، لكنْ نظرَ بطرف عينه لركن الصالة ليجد أوار تختلس النظر، وعلى وجهها فرحةٌ بوجوده، وترقُّبٌ مُتوجّس ممّا هو آتٍ، إذا بالفجوة تتضاءَل وتنحسر في ذهنه، وتعطيه ثقةً بذاته، وهو يجلس ويضع ساقًا فوق

ساق. أتى رئيس الخدم في الفيلا، وهو رجلٌ أربعينيٌ يميل للصّلع، له كرشٌ صغير، وبعض الحوَل الخفيف في العينَين. وضع بلال المشروبات، ثم قال بصوت هادئ:

- هل يطلب السيد ظافر وضيفُه شيئًا آخر؟.

رفع ظافر يده:

- شكرًا يا بلال. يُمكنك الانصراف، لكن على مَقربةٍ منّي.

أومأ بلال برأسه ثم انصرف. استدار ظافر ناحية طلال، ورَمَقَه ببرود قائلًا:

- وقتي مضغوطٌ يا أستاذ طلال، واليوم هو الاثنين، وبعض الضيوف قادمون، فلندخل في صلب الموضوع مُباشرةً وبدون مقدّمات. لقد أخبرَتْنِي ابنتي عنك.

لم تبدر منه حركة حتى. فقط تأمل وجه ظافر بتركيز. واصل هذا الأخير كلامه:

- أخبرَتني أنك تعمل في الإدارة المالية بالحكومة، ورغم احترامي للوظيفة والمُوظّفِين، لكن هل ترى أنّك قادرٌ على منح ابنتي هذا المُستوى من المَعيشة؟.

وأشار للفيلا حوله، بإشارةٍ مُبهمةٍ مُتّسعةٍ، لكل ما يمكن أن يمنحه الأب الثري لابنته.

قال بهدوء حرص فيه على أن يكون مشوبًا بالثقة:

- ربما لا أقدر على منحها هذا المُستوى من المَعيشة، لكن يُمكنني

منحها شيئًا مُؤكّدًا.

بدا الاهتمام المَمزوج بالدّهشة على وجه ظافر وهو يميل نحو طلال بفضولٍ حقيقيّ:

- وما هو؟

لوّح طلال بيده:

- الأمانُ والحبُّ.

ردّد ظافر الكلمتَين كأنّما يتذوّقُهما على طرف لسانه:

- الأمانُ والحبُّ.

ثمّ ردّدهما مُجدّدًا بنبرةٍ أعلى:

- الأمانُ والحبُّ.

ثم انفجر في نوبة هِيستيريّةٍ من الضحك، حتى إنّ عينَيه قد دمعتا، ثم أتبع ذلك بأن ضرب كفًّا بكفٍّ على سبيل التّصفيق، ومسح دموعه بمنديل فاخر، ثم قال ووجهُهُ ما زال مُشرقًا بنضارة الشباب:

- هل تعلم أنّك خفيف الظل؟.

تبادل طلال نظرةً مُفعمةً بالأمل مع أوار، لكن سرعان ما تهاوى كلُّ ذلك كبَيتٍ من ورقٍ، حين قال ظافر وقد تبدّلت ملامح وجهِهِ، واكتسبَت صلابتَها المَعهودة، وإن كانت مُمتزجةً بالقسوة تلك المرة وهو يقول:

- لكنّ هذا مُجرّد كلامٍ فارغٍ لا يُمكن تحويله لأرقام، الأرقام هي ما أؤمن به؛ لأنّها لغةٌ لا تكذب، لغةٌ مُحدّدةٌ لا تقبل الزيادة أو النقصان.

ومال نحو طلال متابعًا:

- هل لو تعبَث ابنتي أو احتاجت شيئًا سيكفيها حبُّك وحنانُك؟.

طلال لا ينقصه الذكاء، وأثناء قدومه للفيلا كان ذلك الحوار يجري مرارًا وتكرارًا في ذهنه؛ ولأنّ ظافر من نمط الأثرياء التقليديّين فيمكن توقُّع ردّة فعله. المُفترض الآن أن يبدو عليه الخوف أو الرهبة أو التراجع أو... أو أي ردّة فعلٍ تُرضي العجوز، الذي أطبق بقبضته الكاسحة على عنقه.

لكن ما زال في جُعبة طلال سلاحٌ أخيرٌ. أخذ نفسًا عميقًا، ثم قال:

- لا تستهنْ يا سيّدي بالمحبّة والحنان. إذا كان شخصٌ ما سيُقدّم لابنتك الثراءَ والمَعيشة الرغيدة، فمن سيُقدّم لها غذاءَ الروح؟ أعلم أنّك تقول في سرّك أني أتيتُ من أجل ثروتها، والحقيقة أني أفكر في ذلك أحيانًا. أقول بأني لو أنجبتُ أولادًا فسيكون من اللّطيف أن يكون جَدُّهم من ذوي الثروات، فبشكلٍ أو بآخرَ سيستفيدون من ذلك، وهذا سينصرف إليّ أيضًا بطبيعة الحال.

دهشةٌ عارمةٌ تبدّت في ملامح العجوز. أكمل طلال قبل أن تهرب الكلمات من ذِهنه، الكلمات التي تمرّن عليها كثيرًا لذلك المَوقف تحديدًا:

- لكنّي أؤكّد لك أنّني لا أفكّر في المال دومًا، وأنّ ابنتك هي المُهمّة بالنسبة لي، وسأبرهن لك أني سأجعلها سعيدةً بدون أموالِكَ الطائلة هذه، فلو أثبتُّ لك ذلك فأعتقد أنك ستكون مُطمئنًا عليها. أمّا لو حدث العكس، وكنتُ خيارًا خاطئًا مُخيّبًا لأملِها وأملِك، فستكون أنتَ

الرابح؛ لأنّك رضخت لرغبتها حين طرق الحبّ بابَها، وبالتالي فلم تحرمها من شيء، ولا بدّ أنها ستُحسن الاختيار حين تختار شريك حياتها القادم بتوجيهاتِك. إنها صفقةٌ -بلُغة الأرقام- رابحةٌ لي ولك. فماذا تقول يا سيّدي؟.

***

(٣)

في العام الأوّل تذوّق من السعادة كما لم يتذوّقها من قبل.

في نهاية ذات العام أعلَنت أوار حملها، وكاد يطير من الفرح.

في نهاية العام الثاني كان الرضيع خالد يحبو على الأرض، وهو لا يكفُّ عن المُناغاة كعادة الرُضّع.

في نهاية العالم الثالث بدأ الحب الذي يكنّه لأوار يتسرّب من قلبه بشكلٍ تدريجيّ إلى الأرض القاحلة، فتتشرّبها دون أن تُنبِت شجرةً واحدةً، وقد تكفّلت الشمس المُحرقة بالقضاء على أي بادرة تحسُن!

الحقُّ أنّ أوار شعرت بذلك؛ لأنّها كانت أنثى أولًا، ولأنّها كانت عاشقةً ثانيةً، والعُشّاق يتمتّعون بترمو متر للأحاسيس فائقة الجودة، يتجاوز دقّة عدّاد جايجر* ذاته الذي يستخدمونه من أجل البحث عن الإشعاعات الذّرّيّة!

وهو كلّما كان ينظر لعينَيها كان يرى تلك الحيرة المُتجسّدة، لكنّها لم تنطق بكلمة، إلا أن الأمور قد تغيّرت قليلًا حين أتَت فدوى للوجود!

زهرةٌ خطفَت قلبَه إلى حدٍّ لا يوصف. هو يحب خالدًا بدون شكٍّ؛ فهو ابنه الأكبر، وأوّل فرحته، ولطالما كان يتأمّل وجهَه الناعم البريء وهو يغُطُّ في نومٍ عميقٍ في سريره الصغير، ويتحسّس جبينه برفق. لكن فدوى تختلف، هي قطعة من سِحر!

ولقد غرق في هذا السحر لسنواتٍ، حتى عيد ميلاد زواجه العاشر، وبمعنى أدق قبلَه بثلاثة أشهر، حيث هبّت عاصفةٌ قلَبَت كل شيءٍ

رأسًا على عقب.

عاد شيطان المَلل مرّةً أخرى، عاد أقوى من ذي قبل، وقد راح يذكّره بحياة العزوبية الجميلة، وحرّيته المَفقودة، هذا بالرغم من وجود أشياءَ قد تقضي على ملَله هذا، مثل ذلك اللقاء الأسبوعي الغريب كل اثنين، والذي يقيمه ظافر لقلّةٍ مُختارةٍ من الضيوف، حيث يتبادلون الحكايات الغريبة، ويقوم الصبي الأسمر بلال على خدمتِهم، ثمّ يختار كل واحد من الحاضرين حجرةً خاصّةً به ينام فيها، ثم يستيقظون قبل الظهيرة،

استقبله بالتّرحاب، وبكرمه المعهود من عصائر باردة.

قابله لأول مرة في أحد المقاهي مُصادفةً، وجرى بينهما حوارٌ عابرٌ. كان نادر مُنطلقًا في الحديث، وقد انطلق أكثر حين عرف أن ظافر هو أبو زوجته.

"إذًا حموك هو ذاك الرجل المُخيف!".

عداد جايجر:يُستخدم لاكتشاف وقياس الجسيمات في الغازات المتأينة ويتم استخدامه على نطاق واسع في تطبيقات مثل الحماية من الإشعاع ، وقياس الجرعات الإشعاعية ، والفيزياء التجريبية

قال مُندهشًا وإن كان مُوافقًا بشكلٍ أو بآخرَ على تلك التسمية:

- لِمَ لا تقول (البُعبُع) أليس أفضل؟.

ضحك نادر:

- إنه يستحقها عن جدارة. تاريخه يؤهّله لتلك التسمية.

سأله طلال:

- تاريخه؟.

رمقه نادر بنظرةٍ ثاقبةٍ بعض الشيء:

- زوج ابنته ولا تعرف شيئًا عنه؟ يا لَلعجب!.

هزَّ رأسه لا مباليًا:

- أنتَ قلتَها. زوج ابنته. ما لي وما له؟.

قال نادر بخبث:

- مالُه في يوم ما سيغدو مالَك.

قال بضيق:

- لستُ مهتمًا بذلك.

في قرارة نفسه كان يكذب بعض الشيء، لكن كان حذرًا. ماذا لو كان ذلك الشاب الوسيم دسيسةً عليه، لينقل أخباره إلى البعبع؟!

قال نادر مبتسمًا:

- على الأقل كنتَ أجريت بحثك عن حَمِيك وغناه الفاحش قبل أن ترتبط بابنته.

قال بخشونة:

- هل في سيرته ما يُشين؟ هل هو تاجر سلاح أو مخدرات، أو يعمل في صفقاتٍ مَشبوهةٍ؟.

قال نادر بسرعة:

- لا توجد قرينةٌ واحدةٌ تقول هذا، ولكن.....

هتف طلال بحدّةٍ:

- ولكن ماذا؟.

صمت نادر للحظة، ثم قال بصوت يموج بالحيرة:

- لكن يظل ثراؤه غريبًا. إنه من عائلة بسيطةٍ تعمل في وظائفَ حكوميّةٍ ذاتِ رواتبَ عاديةٍ. قمت بعمل تحقيقٍ عن حياته، تواصلت من خلاله معه شخصيًا، وقد أمدّني بصورةٍ حيث كان يقف في منتزهٍ على الشاطئ مع والدِه يُمسك بسمكةٍ صغيرةٍ مُحدّقًا إلى الكاميرا ببراءة، حيث قضى يومًا مع والده بالصّيد. أخبرني بأنه صنع لتلك الصورة إطارًا فخمًا ووضعها في صَدر مكتبه. إنّها لحظةٌ ثمينةٌ من علاقته بأبيه، وهو يعتزُّ بها. كما ترى فهذه صفة شخص يعتزُّ جدًا بالعلاقات الإنسانية، وهو يبدو غريبًا للشخص الذي تحوّل إليه فيما بعد".

كانت المعلومات جديدةً لطلال، وانتبه -بدهشةٍ عارمةٍ- أنّه طوال إقامته في فيلا ظافر لم يدخل مكتبه ولا مرّةً واحدةً!

شرب نادر كأس العصير ثمّ قال:

- إلى أن صار ظافر في الثلاثينات، وقد كان من الطبقة المتوسطة، لكن بعد ذلك بدأت علامات الثراء تظهر عليه رويدًا رويدًا. قال بأنّه قضى وقتًا كبيرًا في تعلّم أصول صنع المال، كان هذا قبل هُراء التنمية البشرية وصناعة الذات، حتى صار أستاذًا في مِهنته. ثم اشترى قاربًا صغيرًا واستغلّ معرفته بالبحر وأسراره، وأعطاه

لشخصٍ آخر على أن يقتسما الأرباح واشترى آخر، ثم آخر، ثم خلال أشهر كان معه أسطولٌ من قوارب الصيد، الذي انتشر بطول الساحل كلّه.

قال طلال بحذَر:

- ما تقوله طبيعي. الرجل بدأ رحلته من الصفر.

ابتسم نادر وتجرّع بقيّة العصير، ثم أردف:

- في العام التالي خطّط لفيلّته الشهيرة، والذي جلب لها أحسن المُهندسين الإسبان ويُدعى فرناندو.

تمتم طلال:

- أعلم .

قال نادر وهو يبتسم بمَكرٍ:

- هل تعلم أنّ مُهندس الفيلا قد اختفى بعد انتهائه من تشييده مُباشرة؟".

اعتدل طلال في وقفته:

- حقًا؟.

أومأ نادر برأسه، وأكمل:

- حين سألوه عنه أجابهم أنه قد عاد لبلاده، وبالفعل أكثر من شخص أكّد أنه ركب السفينة ورحل.

- لا أرى فيما تقوله ألغازًا تستدعي حلّها.

في العام التالي لبنائه الفيلا، اشترى قطعة أرض كبيرة وشيّد عليها مصنعه. خلال أعوام قلائل صار ظافر من أباطرة المال.

ومال نحوه:

- ربما لا ترى ألغازًا فيما أقوله، لكنّي أراها علامات استفهام. ربما هي علامات صغيرة، لكنّها تظل علامات استفهام تستدعي التفكير. كيف كوّن حمُوك كلّ هذه الثروة الطائلة؟ من صيد السمك فحسب؟ هراء!.

سأله طلال:

- وما تفسيرُك أنتَ للموقف؟.

لوّح نادر بيده:

- ثمّة لغزٌ في حياة حمِيك. لغزٌ ضخمٌ يستدعي حله. ربّما يُتاح لك ذلك بما أنّك زوج ابنته. إلا لو كنت تحبُّه ولديك ولاءٌ له".

قال باحتقار:

- ولاءٌ لذلك الوغد؟ أنتَ تمزح.

ابتسم نادر بانتصار:

- عظيمٌ. لو رأيتَ أي شيءٍ مُريبٍ عنه أخبرني بذلك.

قال بضيق:

- هل تظنُّني سأعمل لديك جاسوسًا. لا تكن أحمق!".

لوّح نادر بيده مُجددًا:

- لا أقصد شيئًا كهذا، اعذرني! ما هو إلّا مجرّد فضول، والفضول قتل القطّ كما يقول الإنجليز.

رمقه طلال بضيق. الأحمق يتظاهر بالثقافة، وهو يعرف تلك النوعية جيدًا من الأشخاص، الذين يلوكون معلوماتٍ تُظهرهم بمَظهر المُثقّفين، لكن حتى ما يلوكونه تشوبه الأخطاء أحيانًا.

ابتسم طلال وقال، وقد أدرك أنه من العبث الجدال معه فيما دار بعقله:

- أنتَ على حقٍّ.

وصارا صديقَين من بعد ذلك اللقاء، وغدت جملته:

- الفضول قتل القط كما قال الإنجليز" هي لازمته المُفضّلة، حتى ضَجِرَ منها.

تذكّر طلال كل هذا، وهو يمرُّ أمامَ عينَيه كشريط مُضيءٍ، وهو يشعر بالدوار، واستدار إلى نادر كأنه يستنجدُ به، أو سيسأله ماذا يحدث بالضبط، لكنّه تهاوى فاقدًا لوعيه، حتى قبل أن يصل جسده للأرض، وحين استيقظ وجد نفسه في غرفة مألوفةٍ، عاريًا، و....

وبجواره توجد امرأةٌ، لكنّها لم تكن أوار، بل كانت امرأة أخرى!

***

(٤)

كان عدم الفهم والحيرة والذهول هو سيّد الموقف، وطلال ينظر إلى المرأة التي لا يعرفها، وهي تتمطّى تحت الغطاء

انفتح الباب بغتةً، حيث وقفَت زوجته والدموع مُتجمّدةٌ في عينَيها. قال مُرتبكًا:

- ما الذي حدث؟.

مسحت أوار دموعها. دمدمَت بقلب مُضطرمٍ من الغيظ والحزن الكاسح:

- ما حدث أنّك خُنتني. هذا هو الأمر ببساطة.

هتف:

- هذا لم يحدث. لست مُعتادًا على القسم، لكنّني....

رفعت يدَها بصرامةٍ، حتى بدَت أشبه بأبيها:

- لا تفعل! لا تُضف إثمًا جديدًا لخطيئتك الشنيعة.

قال بحرارة:

- لكنّي لم أخنك! لقد....

وصمتَ ريثما يستجمع ذكرياته، ثم قال:

- لقد كنت في زيارة صديقي نادر، ثم قدّم لي العصائرَ بعدها بدأت رأسي تثقل و.... .

توقف عن الكلام وقد اتّضحت له أبعادُ المؤامرة لتوريطه في

مُستنقع الخيانة. ظهر ظافر خلف ابنته وقال لها بلومٍ ممزوجٍ بالغضب:

- أهذا من أحببتِه؟ أخبرتُك أن هذا الطراز لن يقدّرك حقَّ قدرِك يا بنيّتي، إنه جاحدٌ بطبعه، وهذه كانت النتيجة المُؤسفة.

صرخ طلال بغيظ في وجه حَمِيه:

- لا تنفخ في النار أيُّها الثعبان، أعلم أنك تريد هدم ذلك الزواج منذ وقتٍ طويلٍ، ولن أستبعد أن تكون أنتَ من وراء ....

توقّف عن الكلام بغتة وقد تجمّد عقلُه من الذهول. حموه؟! كاد يُكذّب عقله، فهذا مُستوى من الشر يُستبعد أن يتورّط فيه العجوز، لكن الآن وهو يفكّر بشكلٍ منطقيٍّ يجد أنّ كل شيءٍ مُترابط. صرخت زوجته في المرأة القابعة تحت الغطاء في مكانها:

- ماذا تنتظرين؟ اخرجي من بيتي أيتها الفاسقة.

هرعت المرأة للخارج، بينما قالت هي بازدراء:

- جيد أن خالد وفدوى بالخارج، حتى لا يريا قذارة أبيهما.

أشار لظافر مُتهمًا:

- أبوكِ من وراء تدبير كلّ هذا لي، حتى يتخلص منّي.

قلبت شفتيها باحتقار، بينما قال ظافر لاويًا شفتيه بأسف:

- حجّة البليد أن يرمي فشلَه على الآخرين، وأنت يا زوج ابنتي فاشلٌ كبيرٌ. سأجاريك: كيف حدث ذلك؟ هل كنتَ متفقًا مع صديقك نادر هذا من أجل إيقاعك؟.

وهزّ رأسه ساخرًا:

- أنت على حقٍّ إذًا، لقد قابلتُ صديقَك وعرضتُ عليه مَبلغًا كبيرًا لا يُمكن رفضُه، واتّفقت معه أن يخدّرك ويأتي بك إلى هنا، في ساعةٍ مسبقةٍ نكون فيها بالخارج جميعًا. ثمّ أتى بك في سيارته، واستغلّ فرصة أنّ الفيلا خاليةٌ اليوم، حيث ساعده بلال، ووضعاك في حجرة النوم، ثمّ طلب فتاةً لتمثّل دور العاشقة، ويحدث ما رأيناه هنا. هل هذا ما فعلتُه؟ يا لي من عبقريٍّ إذًا!.

وأطلق ضحكةً تموج بالاستمتاع، بينما تجسّد حزنٌ عارمٌ في عينَي زوجته وهي تبكي. وللحظة رأى طلال لمعةَ سخريةٍ في عينَي ظافر، لمعة تخبره بأنّ ما قاله بطريقةٍ مُتهكّمةٍ هو ما قد حدث بالفعل. قال صارخًا:

- هذا ما حدث بالفعل. لقد اعترف أبوكِ بجرمه.

صرخت:

- كفى! كفى كذبًا أيها الوضيع.

وتوجّهت للدولاب، وأخرجت منه صورةً ناولَته إياها:

- هل لك أن تخبرني من هذه المرأة أيها الزوج المُخلص؟.

ارتبك واضطرب وتجسدت الألوان السبعة على وجهه، فيما بدا أنه اعتراف صريح بالخيانة، وهو يحدّق إلى صورة شهد. لم يجد كلمةً يقولها. التفتَت إلى أبيها:

- احرص على شيئَين يا أبي: أن يُطلّقني، وألّا أرى وجهه مرّةً أخرى.

أومأ أبوها برأسه، وهو يَربت على كتفها بشفقةٍ.

هرعَت من الحُجرة حتى لا تخذلَها دموعُها أكثر. أمّا هو فقد تقدّم نصف عارٍ من أبيها وقال وهو يصكّ على أسنانه من الغيظ:

- كلُّ هذا من فعلِك وتخطيطِك أيُّها الشيطان!.

هزّ ظافر كتفَيه وقال ببرود:

- أثبت ذلك.

ورفع أصابعه أمام وجهه مُردفًا:

- في العادة أنا لا أترك أحدًا يؤذي ابنتي قبل أن أقتصّ منه. لكنّك والد خالد وفدوى، وكنتَ زوج ابنتي يومًا ما، فلن أفعل شيئًا لك.

وابتسم بسماجة:

- أتكلّم عن افتراض ما سيكون.

قال بعناد:

- لن أطلّق.

طقطق ظافر بلسانه قائلًا:

- تعقّل! أنتَ خائنٌ ومُتلبّس بالخيانة، ومن السهل أن أُكلّم فدوى وخالد عن معنى الخيانة، وبالتالي سينبذانكَ للأبد. لكن دعِ الأمر يمرُّ هكذا دون فضائح. ارضَ من الغنيمة بالإياب، وعد إلى الجُحر الذي أتيتَ منه.

وانقلبت سحنَتُه، واتّخذت شكل صرامتها المعهود:

- أرجو ألا تكون قد نسيتَه.

لكَم ودّ طلال أن يفتِك به في تلك اللحظة. كان عليه أن يترك الفيلا فورًا، الفيلا الذي شعر أنّها ضيّقةٌ إلى حدٍّ لا يُوصف، وهذا طبعًا لأنّ روحه كانت تتنفّس من ثقب إبرة، وهو يُغادر المكان شعر أنه عارٍ تمامًا، والخجل يُغطّي مُحيّاه، برغم أنه قد ارتدى ملابسَه بالفعل. حاول أن يُعيد المياه إلى مجاريها، لكنّ هذا لم يحدث، فقد أصرّت على الطلاق، الذي حدث في النهاية. وسط موجة العذاب التي كانت تُغرقُه تحت سطحها، كان يُريد إجابةَ سؤالٍ واحدٍ، سؤالٍ يؤرّق عليه مَضجعَه ويعذّبه. كان قد طلب مُقابلة ظافر أكثرَ من مرّةٍ في فيلّته، لكن رُفِضَ الطلب بما أنّه قد صار ضيفًا غير مرغوب فيه. في الشركة الأمّ التي يستقرّ فيها ظافر في أعلى طابقٍ منها، والتي يُدير منها بقيّة الشركات رفض رجال الأمن طلبَه بمُقابلتِه؛ لهذا لم يعد أمامه سوى طريقةٍ واحدةٍ. كان يعرف أنه يقضي ساعةً واحدةً بعد العمل في ذلك المَقهى؛ لذا كانت دهشة ظافر عارمةً وهو يراه أمامه يجلس مقابلًا له دون دعوةٍ. وقبل أن ينطقَ هذا الأخير بكلمة اعتراض، أو غيرها قال:

- لماذا لم تفعل ذلك في بداية زواجي من ابنتك. لماذا الآن؟.

رمقه ظافر بصمتٍ، ثم صنع إشارة معيّنةً بأصابعه لرجلَين يتبعانِه بتفتيش طلال بعناية، وقد حدث. في النهاية، استقرّ جوّاله على المنضدة بعد أن أغلق. قال ظافر بتؤدةٍ:

- ابنتي هي أغلى ما أملك في هذه الحياة، ومن بعدي سترثني، ومن بعدها سيرثُها خالد وفدوى. لكن أنتَ لا مكانَ لك في تلك

الحياة؛ لأنّك بشكل أو بآخر شخص مؤذٍ. ستؤذيها عاجلًا أم آجلًا.

- وبأي حقٍّ تعتبرني كذلك؟.

قال ظافر مُبتسمًا:

- خبرتي في الحياة علّمتني أنّ أسوأ الصفات أن تضع نفسك على الحياد. أنتَ تُمارس خيانةً من نوع خاص، خيانة لا يوجد عليها دليلٌ دامغٌ، وقد انتظرت سنوات طوالٍ أملًا في أن تتخلّص من ذلك الداء، لكنّك لم تفعل. ابنتي تحبّك فعلًا، لكن هل تتصوّر أنها ستكون سعيدة حين تعلم أنّ قلبك يتنقّل بين أُخريات؟ لا أظنّ.. لذا كان عليّ أن أدفع الأمور لتتطور قليلًا، أن "تبدو" خائنًا مُتلبّسًا بخيانتك أمامَها. نعم، أنا من دبّرت كلّ شيءٍ من أجل أن تستريح أوار وتتّخذ قرارًا، لكن في نفس الوقت أنت من فعلتَ ذلك بنفسك فيما بعد، لذا لا تلومَنّ أحدًا سواها.

انتبه طلال إلى تلك الذكريات المُوجعة وهو يقود سيّارته، على ذلك الثّور المُبهر الذي ظهر أمامَه في الطريق. قال لنفسه بأنه سيلقى مَصرَعه بسبب سيارةٍ أبهرَه نورُها. تحرّك مُتفاديًا النور المُباغت، لكنّ تلك الحركة جعلَته ينحرفُ ليصطدم بعمود إنارةٍ ويفقدَ وعيه، وحين استيقظ كان في المستشفى، بعد أن ظلّ لثلاث ساعاتٍ في غيبوبتِه القصيرة هذه، ومن حسن حظّه أن السحجات التي ملأت جسده ستُشفى قريبًا، لكن ماذا عن الجرح الهائل بحجم الكون الموجود في قلبه؟

انتهى من الاستجواب البسيط، الذي حكى ما حدث فيه بشكل مُبسّط ومُختصر، والذي لا علاقة له بالزّخم المُرعب من التفاصيل

القابعة في عقله، وحين انصرف المُحقّق ومُساعدُه شعر برغبةٍ عارمةٍ في النوم. غرق في نوم عميق بلا أحلام. قضى عدّة أيامٍ في المُستشفى للمراقبة، ثم في اليوم الذي كان من المُفترض أن يُغادر فيه، جاءه ضيفٌ غير مُتوقّع، وجدَه يقف على باب الحجرة بطوله الشاهق ومَلامحِه الحادّة. تمتَم بحَيرة:

- ظافر؟!.

***

(٥)

لوهلة لم يصدّق وجودَه أمامَه، قال بأنّ الحادثة قد أثّرت عليه، وجعلَته يتخيّل وجودَ عدوّه اللّدود! لكنّ ظافر تقدّم منه قاطعًا حبل التوهُمات، وقال:

- كيف حالك الآن؟.

وجد نفسه يقول بخشونة:

- ماذا تريد؟.

تأمّل ظافر الحُجرة حوله، ثمّ سحب كرسيًا وجلس. في ضوء الحجرة القويّ ما مكّن طلال من أن يرى شحوبَه، وذلك الخوف العميق المدفون في عينَيه. ظافر الذي يراه في تلك اللحظة غيرُ ظافر الذي رآه منذ أيامٍ، يقف بجوار سيّارته، ويتكلّم معه بعجرفةٍ، طالبًا منه الرحيل.

قال ظافر بعد برهة، وكأنّه يشعر بنافورة التساؤلات بداخله:

- ثمّة شيءٌ قد حدث بالأمس.

شعر طلال بقلقٍ ينهش قلبَه. قال مُرتجفًا:

- هل أوار وخالد وفدوى بخير؟.

لوّح بيده:

- بخير. اطمئِنّ.

انتظمَت دقات قلبه. أشار ظافر لنفسه:

- الأمر مُتعلّق بي. أنتَ تعلمُ أنّي أقوم بكشفٍ دَوريٍّ كل ستة أشهر.

أومأ طلال برأسه. قال لنفسه أنّه لم يرَ أحدًا يهتمُ بصحّته ولياقته كما يفعل هذا العجوز!

واصل ظافر كلامَه:

- لقد ذهبت بالأمس لإجراء الفحص الدّوريّ الذي أقوم به كلّ ستة أشهر، عند طبيبي الخاص الدكتور إبراهيم.

كان طلال قد قابلَه مرّةً واحدةً في أحد اللقاءات الأسبوعيّة التي لم يهتمّ يومًا بحضورها، والتي يقيمُها ظافر بانتظام في فيلّته. رجلٌ لطيفٌ، لديه مركزٌ طبيٌ مُتكاملٌ، حُجّةٌ في مجاله. كان يقول لظافر مازحًا:

- أريد أن أعرف اسم الشيطان الذي بعثَ له روحك من أجل أن تكتسب هذا الشباب والرشاقة يا صديقي!.

وكان ظافر يقهقه، وقد بدا على وجهه الفخر بنفسه.

بشكل ما أدرك طلال أن الفحص الدوري كان مُختلفًا عن المرّات السابقة. وجد نفسه يسأل حماه السابق:

- كم لديك من الوقت؟.

حدّق إليه ظافر والدهشة على وجهه.

قال طلال لنفسه بأنّ الوغد قد أصيب بمرض عضال، وقد انهزم جسده الرشيق أمام سطوة الزمن أخيرًا، وشبح الموت يقترب منه، ويريد أن يُريح ضميره الملآن بالآثام.

- كم تبقّى لديك من الوقت؟.

- أشهرٌ قليلةٌ.

- وماذا تُريد؟.

- أريد أن تُسامحني.

أطلق طلال ضحكةً ساخرةً، ولولا التعب الذي يشعر به لدوّى صداها عاليًا في المستشفى كله.

- أسامحك على أي شيء بالضبط؟ على خراب بيتي، أم إهانتي، أم استخدام نفوذك وسلطانك من أجل حرماني من رؤية فدوى وخالد؟.

كان صوت ظافر مُتحشرجًا، وهو يقول:

- على كلّ ما فعلته.

ثم أردف:

- أعلم أنّك تكرهني، وأنّك ترغب بشدة في تحطيم رأسي على جدار ما.

قال طلال بضيقٍ، وقد شعر بالغيظ لأنّ زوجته أبلغت بذلك أباها:

- أخبرتك أوار بذلك إذن؟.

- صحيح.

هزّ طلال رأسه:

- تفعل كل هذه الأفاعيل، ثمّ حين تدنو النهاية تطلب مني أن

أسامحك فقط، وبذلك تتكافأ الكفّتان! يا للسخافة!.

قال ظافر بضيق:

- من قال أنّني لن أصلح أخطائي بحقك؟ لا تفترض أشياء وتصدّقها.

راق له أن يُراقب ارتباك ظافر كتلميذٍ فاشلٍ، فقال مُستمتعًا بكلّ كلمة يقولها:

- وكيف ستفعل ذلك إذًا؟.

رفع ظافر رأسه:

- بأن تتزوجَ أوار مرّةً أخرى!.

***

لم يصدّق ما تسمعه أذناه، كما أنه لم يصدق بصره منذ قليل، حين زاره ظافر! والحق أنّه قد شعر بارتباك عارم تلك المرة، وكأنّ كل الاحتمالات التي وضعها تهاوَت مُستحيلةً إلى تراب.

- أتزوّج أوار؟ هل تمزح؟.

هزّ ظافر رأسه بتصميم:

- مُطلقًا.. لا توجد مُبالغةٌ في كلامي، أو خدعةٌ ما، بحيث تدخل الفيلا فُثفاجأ بأني أُعدُّ لك شيئًا سيّئًا.

قال طلال بحذَر:

- تجربتي السابقة معك تقول بأنك تقول الحقيقة دومًا وسط

كلامك.

نظر إليه ظافر للحظة، ثم ضحك ضحكةً مُرهقَةً. قال:

- لقد سألتُ الأطبّاء عنك وأخبروني أنك بخير، ويُمكنك الخروج. أُريد أن أُغادر هذا العالم وأنا مدركٌ أني تركت عائلتي في أمان. وبغضّ النظر عن الخلافات التي كانَت بينَنا....

قاطعه طلال بخشونةٍ:

- ولا زالت بيننا.

لوّح ظافر بيدَيه مُستسلمًا:

- والتي لا زالت بيننا، فأنا مُتأكّدٌ من إخلاصك لعائلتك وحبّك لها، ولن تسمح بحدوث أي سوء لهم، رغم أخطائك الفادحة وخياناتك.

تمالك طلال غيظَه. سأله مُحاولًا صرف ذهنه عن فكرة إلقاء ظافر من النافذة:

- كم تبقى لك؟.

قال ظافر بعد برهة:

- أقل من شهر.

صمت طلال. قال بعد برهة:

- وكيف سأدخِلُني إلى حياتهم بشكلٍ طبيعيٍّ؟.

أبرز ظافر من جيبه بطاقةً مُذهّبةً، مكتوبة بخط كوفيٍّ جميلٍ، وناولها لطلال قائلًا:

- بأن أدعوَك لمجلسي الأسبوعي طبعًا. أنت أحد السبعة المَدعوّين يا فتى!.

***

عاد لمنزله واستراح لعدّة أيام، ثمّ تواصل معه ظافر، بل وزاره في شقّته. كان طلال يُغيّر ملابسه، تاركًا العجوز يتجوّل في شقّته بحُرّيّة. توقّف ظافر أمام حجرة المَكتبة الصغيرة، قال مُبتسمًا، وهو يرمق أكوام الكتب المُتراصّة فوق بعضها البعض على الأرض:

- أما زلت مُغرمًا بقراءة الكتب؟.

أجابه طلال من حجرة نومه:

- إنها إحدى المُتَع المُتبقية لي.

جلس ظافر، وألقى نظرةً على كتاب يدل غلافه على أنّه يتحدّث عن نظريّاتٍ علميّة، وبدا برّاقًا بغلافه السميك، والصورة الجذابة عليه. خرج طلال من حجرة نومه، وقدّم لظافر زجاجة مياه غازية على سبيل الضيافة، ثم قال:

- وماذا عن زواجي من أوار؟.

قال ظافر بحزم:

- اصبر.. دعني أرتّب لك الأمر بطريقتي الخاصة. احضُر اللقاء أولًا، وستبيت ليلتك في الفيلا بطبيعة الحال. ساعاتٌ كهذه ستُتيح لك تواصلًا معهم، حتى لو كان بشكلٍ بسيطٍ في البداية.

ثمّ نهض وقال متابعًا:

- وقد جئتُ لأُرافقك بنفسي في سيارتي.

بدت عليه الدهشة والحيرة. لقد تغيّر ظافر كثيرًا. هل الدُّنوُّ من الموت يفعل ذلك؟ ركب معه السيارة، وانطلق بها في الشوارع المُزدحمة، ومن طرفٍ خفيٍّ وهو يتأمّل وجه ظافر أمكنه أن يلمح علامات التقدُّم في السن البارزة على وجهه وجسده. نعم، هو يُحاول التماسك وشدّ جسده، لكن الزمن قاسٍ، ومُحاربته معركةٌ خاسرةٌ. زادت خفقات قلبه، حين رأى فدوى وخالد وأوار يقفون أمام البوابة الداخلية للفيلا. هرعت فدوى إليه فور أن رأته وألقت بنفسها في حضنه.

- أبي، لقد أوحشتني جدًا. لم أصدّق حين أخبرنا جدي بحضورك.

ضمّها لصدره ريثما يشعر بذلك الدفء الأبوي الغامر يتصاعد بداخله كسيمفونية، وتمتم:

- وأنا أيضًا يا حبيبتي.

وتأمّلها وهو يقول:

- لقد صرتِ عروسًا فاتنةً.

تضرّج وجهُها بحمرة الخجل، بينما تقدّم خالد منه بخطواتٍ رصينةٍ، وقد ظهر شاربٌ صغيرٌ فوق شفتيه. قال طلال وهو يفتح ذراعيه بعد أن انتزع منهما فدوى برفق:

- لقد صرتَ رجلًا يا خالد.

وهمّ باحتضانه، لكن الصبي تراجع قليلا للخلف، ثم قال بجفاء:

- هل أنت بخير يا أبي؟.

شعر بالحرج. إيماءةٌ من رأسه كانت كافيةً. طالما كان خالد ينأى بنفسه عنه، ولا يعرف السبب. عادت فدوى للتعلق بعنقه، فضمّها مُجدّدًا وهو يقترب من أوار التي لم تتحرّك من مكانها قيد أنمُلَةٍ. قال مُمازحًا:

- إنّما هي إلا بضع خطوات للسيارة.

ابتسمت بشحوبٍ، لا بل ببرود.. شعر بالحرج. من المُفترض أنّ ظافر قد شرح لها الموقف، وصحّح لها الصورة المَغلوطة عنه كزوجٍ سابقٍ خائنٍ. الحقُّ أنّه مُمتنٌّ أنها لم تتزوّج من بعده، وهو لم يفعل ذلك أيضًا، برغم كثرة قصص الحب التي دخلها، ثم خرج منها بقلبٍ خاوٍ، حتى أنه تساءل إن كان يستحق فعلًا ما حدث له. رمق ظافر بنظرةٍ مُستفهمةٍ، فهزّ العجوز رأسه بأن يؤجّل الأمر لما بعد. دخل الفيلا، والذي تحتوي جنباته على ذكرياتٍ لطيفةٍ، وأخرى سيّئةٍ. هنالك كان خالد يحبو، وهنا كانت فدوى تكسر المزهريّات الثمينةَ. كان يتشرّب الأماكن بعينَيه، بينما مال ظافر على أذنه خلسةً:

- لقد أخبرتُهم بأنّك أنتَ المريض!.

كاد يصرخ مُستنكرًا، لكنّ ضغطةً قويّةً من يد ظافر في ذراعه الأيسر جعلته يكتم صرختَه هذه، وظافر يفسّر:

- لا تتحامَق! هذه أفضل طريقة لتعود المياه لمجاريها معهم. قلت لهم بأنك مريض تعاني من السرطان، وتحتاج لعناية خاصة بك، وهو ما سيجعلهم يعتنون بك في الساعات القليلة التي ستقضيها هنا. لو أخبرتُهم أني أنا من سأرحل سوف يهتمّون بي، وسينسونَك تمامًا. لا

تنسَ من كان يرعاهم طوال السنوات المُنصرمة.

على الرغم من غيظه وشعوره أنه قد خُدِعَ بشكلٍ ما، لكنّ طلال وجد تفكير العجوز منطقيًا. ربما يكون وغدًا، لكن لا ينقصه الذكاء على أية حال. استقرّ في حُجرةٍ من حُجرات الفيلا الكثيرة، والتي من المُفترض أنه سيقضي فيها ساعاتِ الليل الأخيرة، بعد انتهاء ذلك اللقاء. كانت السحجات ما زالت تؤلمه، وإن خفّت حِدّة الألم عن ذي قبل. ارتدى ثوبًا مُريحًا، وجلس على حافّة السرير. سمع صوت طرقاتٍ على الباب فنهض وهو يبتسم. صحّ توقُّعه.. كانت فدوى. أخذها في حضنه.

- هل تتذكّر حين كنتَ تُخبرني بقصص البيوت المسكونة يا أبي؟.

ابتسم. قال لنفسه بأنّ هذا شيءٌ لا يُنسى بطبيعة الحال، حين كانت صغيرةً، وعيناها تلمعان لحكاياته المُخيفة المُشوّقة، وحيث كانت أوار تعترض على ذلك بحجّة أن الطفلة ليست مُؤهّلةً لتلك القصص المُريعة في سنّها الصغيرة تلك. لكنّ ابنته غدت فتاةً يافعةً الآن، على أعتاب أن تكون امرأةً مُكتملةَ الأنوثة، ولا يظنّ أن أوار قد تعترض الآن. قال مُبتسمًا:

- هل تريدين أن أحكي لك قصّةً مُرعبةً أخرى؟.

قالت بلهجةٍ تبيّن فيها توترّ خفيّ:

- أظنّ أنّ هذا المنزل مسكونٌ يا أبي!.

***

(٦)

في الحديقة الوارفة الظلال المُلحقة بالفيلا جلس طلال قُبالة أوار.

- كيف حالكَ الآن؟.

سألَتْه بلهجةٍ خافتةٍ نوعًا ما. تأمّلها بصمتٍ.. ما زالت تحتفظ بجمالها بعد مرور خمس سنوات على مُقابلته الأخيرة لها، ذلك اليوم العاصف الذي طلّقها فيه، والذي كانت فيه ملامحُها ثلجيّةً، لكن في آخر لحظة تمكّن من أن يلمحَ دمعةً تفرُّ من عينَيها. المَلامح الثّلجيّة تُقابله مُجددًا. ما زال الجرح غائرًا إذًا. هل يُخبرها بالحقيقة، أم يلتزمُ بخطّة ظافر التي لم يعرف خطوطها العريضة حتى الآن، أم ليس عليه سوى أن يضع ثقته فيه؟.. وجد نفسه يتمتم:

- بخير.

قالت وهي تتفحّص وجهه الشاحب:

- هل تتناول أدويتَك بانتظام؟.

كاد يُخبرها أنّ الحادثة بسيطةٌ برغم أنه ظلّ في المستشفى لأيام للمُراقبة فقط، لكنّ عقله حذّره بأنها تقصد مرضه المزعوم. وجد نفسه يقول بحذر:

- نعم.

تمتمَت أوار بعد برهة:

- هل تشعر بالندم بعد الذي فعلتَه؟.

كان يعرف أنها تقصد الخيانة المُلفّقة، لكنّه قال من قلبه مُخلصًا:

- الندم يأكلني يوميًا.

نعم، الندم يأكله على أخطائه التي ارتكبها بالفعل في حقِّهم.

قالت بعد برهة:

- لا تظنّ أنني نسيت، أو أنّ الأمور ستتغيّر. كل ما يهمني أن تترك ذكرى طيبة في ذاكرتهما عنك قبل رحيلك.

قال بدهشة:

- قبل رحيلي؟.

قالت بتوجُّس:

- السرطان المُصاب به أنتَ لا علاجَ له.

ضغط على أسنانه من الغيظ.. ظافر الوغد.. هنا لمح في عينَيها نظرة تشكُّكٍ راحت تتّسع. قال بضيق، وقد قرر أن يلتزم بأبعاد الشخصية:

- ألا يوجد لديكِ ذوقٌ. هل كلامك هذا مُناسب لرجل على أعتاب الأبدية؟.

قالت بما يُشبه الاعتذار:

- لا بد أن تكون الأمور واضحةً قبل كل شيء.

أومأ برأسه. ظافر حرّف كثيرًا من الوقائع. لكن لا يهم.

قالت:

- سيحضر خالد وفدوى تلك الجلسة الأسبوعية، فاغتنم الفرصة.

تمتم:

- عظيم.

وصمت. كانت عيناه تتجوّلان في أشجار الحديقة. قالت بعد برهة وهي تنهض:

- بما أننا قد انتهينا، فهل نعود للداخل؟.

لم يتحرّك من مكانه، بل أشار إليها للجلوس مرةً أخرى:

- لديّ ما أريد أن أناقشك فيه.

جلست ونظرةٌ مُترقّبةٌ على وجهها. قال بعد لحظةٍ، ريثما يجد الكلمات المُناسبة:

- هل فدوى بخير؟.

قالت بقلق:

- بخير طبعًا. لِمَ تسأل؟.

- لقد زارَتني في غرفتي أمس.

قالت بحذر:

- أعرف، فقد رأيتها تتّجه لغرفتك. لا تتخيل كم كانت تصدّعُني بالكلام عنك.

ابتسم بحنانٍ. ثم تذكر ما حدث ليلة البارحة فقال بتوتر:

- أخبرَتني بأنّها لا تنام ليلًا.

وبنظرةٍ مُستفهمةٍ يشوبها بعض الحذر في عينَيها قالت بأن أشياء غريبةً تحدث بعد مُنتصف الليل.. خطواتٌ حَذِرةٌ مُتلصِّصة.. همساتٌ ضاحكةٌ أو باكيةٌ.. عواء!".

أطلقت أوار ضحكة رقيقة:

- هل أخبرتك بذلك أيضًا؟ الفتاة خيالُها جامحٌ، والكتب الخيالية التي تقرؤها قد أثّرت عليها.

قال بدهشة:

- إذًا أنتِ لديك علمٌ بذلك؟.

هزت كتفيها:

- بدون شكٍّ.. لقد مَكثتُ في الفيلا لعشر سنوات هل سمعت أو رأيت ما يريب؟.

كان في كلامها وجهة نظرٍ منطقية. بالفعل هو لم يسمع ولم ير شيئًا غريبًا طوال مدة مكوثه بالفيلا. بل كان ممّا يعيبه عليه شعوره بأنه وسط مَتاهةٍ عجيبة لا أوّل لها ولا آخر. موحشةٌ باردةٌ، وغرفاتٌ مُتناثرةٌ هنا وهناك، وعليك أن تسير ومعك خريطة حتى لا تضيع. والحق أن هذه ليست مُبالغة، فطلال يعلم أن الفيلا أقيمَت على عدّة فدادين!

جوٌّ كهذا قادرٌ على تفجير خيال أي شخص، فما بالك بفتاةٍ صغيرةٍ، لكنّ فدوى لم تعد كذلك، ولو كان هناك شيءٌ أو تتخيل وجود شيء فسنُّ الطفولة مُناسب جدًا، لكن الآن وهي على أعتاب المُراهقة فهذا غريب!

بدا عليه الشرود وغرق في أفكاره. قالت أوار:

- سأتركك الآن.. المُفترض أن الضيوف سيحضرون بعد ساعة.

وتركته يضرب أخماسًا في أسداسٍ غارقًا في دائرة الغموض هذه.

***

كان طلال يجلس في القاعة المُخصّصة لاستقبال الضيوف، والتي تطلُّ على رواقٍ طويلٍ ينتهي بمكتب ظافر نفسه. كان يشعر بأنه على حافة جبلٍ غير مُريحةٍ على الإطلاق، وهو ينظر للهاوية التي تنتظره بالأسفل. الشعور مُخيفٌ، والمُفترض ألا يشعر به، لكنه يشعر به على الرغم من ذلك، وهذا مُزعجٌ بما فيه الكفاية. مُزعجٌ لدرجة أنه لم ينتبه للأيدي التي يصافحها، حتى توقَّفت عيناه عند رجل بعينه.

قال مُندهشًا:

- أنت؟.

ابتسم نادر:

- كيف حالك يا صديقي؟.

كاد يُطبق على رقبته، ويقضي عليه، فهو السبب في تدمير زواجه، وهو الآن يحضر الفرصة الثانية التي أُعطيت له! يا للتّبجُح! لكنّ الأعين كلها مُسلّطة عليه، وعليه أن يتحكّم في أعصابه. ابتسم ببرودٍ وهو يقول:

- من دعاك؟.

لم تختفِ ابتسامته وهو يجيب:

- ظافر نفسه.

سأله مذكّرًا:

- هل اختفَت علامات الاستفهام إذًا؟.

ضحك نادر ومال على أذنه هامسًا:

- بل غدت أشجارًا سامقةً

ثمّ رمق المكان الفخم حوله:

- لكن لا أحد يهتم.

سأله طلال:

- هل تعرفت عليّ مُتعمّدًا إذًا.

قال نادر بلهجةٍ تنضح بالصدق:

- صحيح. لكن ظافر لم يدفعني لذلك. بل حِسّي الصحفي.

قال طلال ساخرًا:

- إذًا فقد اشتراكَ بعدها!.

تلاشت ابتسامة نادر، واعترى ملامحه ضيقٌ وقال:

- لا داعي لاستخدام تلك الألفاظ يا صديقي السابق.

- لقد اشتراك بأمواله حتى تُخرّب عليّ زواجي. هذه هي الحقيقة.

قال نادر بهدوء أقرب للتهكُّم:

- الحقيقة لها أكثر من وجه. من وجوهها المُتعددة أنّك من فعلتَ

ذلك بنفسك. لا تُكابِر.

ثمّ أردفَ وهو ينظر حوله:

- هل تعلم أنّها المرة الأولى التي أحضر فيها هذا اللقاء الأسبوعي؟ الكل يتحدّث عن ذلك التقليد المُدهش الغامض للثري ظافر المنجد.

وضحك بصوتٍ خافتٍ قائلًا:

- من لم تتمّ دعوته إلى هنا يشعر بالخجل نوعًا ما.

ومال أكثر نحو طلال:

- اعتبرها علامة استفهامٍ أخرى.

ظهر بلال وهو يحمل صندوقًا من المعدن، قال ظافر بابتسامةٍ هادئةٍ:

- كما تعوّدنا في لقاءاتنا السابقة، على السادة الحاضرين وضع هواتفهم المَحمولة في الصندوق، حتى انتهاء جلستنا.

بدون كلمةٍ أو هَمْهَمةِ اعتراضٍ أخرج كل واحد من الحاضرين هاتفَه ووضعه في الصندوق، وعندما أتى الدور على طلال بدا مُتردّدًا، فهو لم يكن يعلم تلك الجزئيّة تحديدًا، طول مدة مكوثه بالقصر. هل تم استحداثها بعد طلاقه لأوار؟ وضع هاتفه في الصندوق، ثم أتى الدور على نادر، والذي وضعه بدون تردُّدٍ، ثم مال نحو طلال مرة أخرى:

- ما دفعني لقبول الدعوة هو الفضول، والفضول قتل القط كما يقول الفرنسيون.

قال طلال بخشونة:

- الإنجليز.. هل نسيت على كثرة ترددها يا أحمق؟.

هزّ نادر رأسه بلامبالاة، وهو يقول:

- كلُّنا أحمقٌ على طريقته.

وألقى نظرة على القاعة الفخمة حوله وقال مُعجبًا:

- لقد قام فرناند الإسباني بجهدٍ عظيمٍ في التخطيط لتلك الفيلا.

كاد يخبره طلال أنّه فرناندو وليس فرناند، ثم قال لنفسه أنّه لا فائدة، سيظلُّ كما هو، أحمق، يكرر معلوماتٍ مغلوطة، ويتشبث ببعض المقولات لكي يظهر في سَمْتِ المحققين، لذا فقد هزّ رأسه بفتور، وهو يرفع كأس العصير المُثلّج، وكأنه يقول له اذهب إلى حيث أُلقيتَ. ابتسم نادر وكأنه شعر بما يريد طلال أن يقوله، وانخرط في الحشد، وراقبه طلال وهو يتجوّل وسط أولئك الذين أتوا لحضور ذلك اللقاء الأسبوعي، والذي لم يتغيّر عن يوم الاثنين، منذ كان في تلك الفيلا. دار بلال على الحاضرين بالمشروبات التي تتوهّج داخلَ الكؤوس الشفافة، وأخذ واحدًا، وصبّ ذلك العصير اللذيذ ذا الطعم الغريب نوّعا ما في حلقه، لكنّه لم يكترث حتى لمعرفة ما هو، فشخص شديد الثراء مثل ظافر يستطيع أن يجلب فاكهةً استوائيّةً غير معروفة بالمرة من غابات خط الاستواء ويصنعها عصيرًا لضيوفه!

تألّقت فدوى في ثوبٍ بهيّ، وابتسامةٍ عريضةٍ تضيءُ وجهَهَا، بينما اكتفى خالد بأن تأمّل الجمع الصغير ببرودٍ عجيبٍ، وكأنّه لا

يهتمُّ بذلك الهُراء الذي يحدث أمامه. أما أوار كانت رائعة الجمال، وهي تجلس قبالة طلال. لاحظ بدهشةٍ أنّ بلال لم يقترب منهم بصينية المشروبات، ثم قال طلال لنفسه بأنهم أصحاب المنزل وليسوا ضيوفًا بطبيعة الحال، فمن المنطقي إذًا أنهم لا يتناولون هذه المشروبات، ثم قال لعقله موبخًا أنه يفكر في أشياءَ غريبةٍ حقًّا!

ألقى طلال نظرة حزن على أوار، وهو يشعر بتأنيب الضمير؛ لأنها تدخل على الرغم منها في تلك التمثيليّة السخيفة. قال لنفسه أنّه يفعل ذلك من أجل أبيها الوغد، ثم إنّه لم يخنها في حياته، وكان طلاقه نتيجة حيلةٍ مُدبّرةٍ من والدها. بشكل ما يرى أن العدل يتحقّق أخيرًا. صافح القِلّة المدعوّة، وكان من ضمنهم الدكتور إبراهيم، الذي قال له:

- أهلًا يا أستاذ طلال.. لقد حضرتَ لقاءنا الأسبوعي أخيرًا. أؤكّد لك أنه مُثيرٌ رغم تصور البعض أنه مُملٌّ.

قال طلال مُندفعًا، وإن كان بصوت أقرب للهمس:

- أنت تعرف أنني أفعل ذلك من أجل العجوز ظافر يا دكتور.

قال إبراهيم بدهشةٍ:

- ماذا تقصد؟.

قال طلال، وقد شعر بالندم لتسرُّعه، لكنّه وجد أنه لا مناصَ من ذكر الأمر برغم تحذير ظافر له بعدم إفشاء الأمر، لكنّ علامات الاستفهام حوله تكاد تصيبه بالجنون:

- أقصد موضوع السرطان الذي يستشري في جسد ظافر، والذي

سيورثه الهلاك بعد أيامٍ قلائل.

قال إبراهيم بدهشة أكبر:

- من أبلغك بذلك؟ ظافر صحّته على ما يُرام.

قال طلال بحدة:

- وماذا عن ذلك التعب على وجهه؟.

لوح إبراهيم:

- طبيعي. أنسيت أنه في الثمانينات. ثم إن ظافر لِمَن في نفس سنّه يُعدُّ مُعجزةً تمشي على قدمَين.

وأردف ضاحكًا:

- إنّ صحّته أفضل مني ومنك يا عزيزي!.

***

(٧)

لم يكن طلال يشعر بدهشةٍ كبيرةٍ من سماع ذلك الأمر، وكأنّه كان يتوقّع ذلك بشكل أو بآخر. يتذكّر مرةً من المرات كان يتحدث فيها مع أوار قبل أن يطلقها وقال لها:

- يرعبني والدك. أشعر أنه داهيةٌ، وهذا الدهاء يتخفّى وراء مظهره الرياضي وخطواته الرشيقة المُتّسمة ببعض الوقار، وخلف ملامح وجهه الحادة، لكنّ عينَيه تخفيان وراءهما شيئًا رهيبًا!.

ضحكت أوار حينذاك، وقالت وهي تهزُّ كتفَيها:

- أشعر بذات الشيء.

ضحك قائلًا:

- من الجميل أنّك لم تَرِثي منه شيئًا إذًا!.

قالت وهي تبتسم بمَكرٍ:

- لو كنت تقصد الذكاء، فمن يدريك!.

وضحك هو الآخر..

الآن يشعر كم كان ساذجًا، لكنّ العجوز لعب على فكرة الاحتياج. لقد أتى له بعرض لا يُمكن رفضه كما يُقال، وكأنه يقول:

- سأقدّم لك عائلتك من جديد، وأنت في أشدّ الحاجة إليها، سأقدّمها لك بأسبابٍ واهيةٍ سرعان ما تكتشفها، لكنّ لأسبابٍ غامضةٍ لن تهتمّ كثيرًا بمعرفتها، المهم أنك ستكون معهم أخيرًا. هل أنت موافق؟.

سيقول بلهفة:

- بالطبع أوافق.

وهذا ما قد كان، فلِمَ يلومه إذًا؟ بحث عنه ببصره، فوجده يتحدث مع أحدهم. اقترب منه وقال هامسًا:

- لقد خدعتَني.

سأله:

- خدعتْكَ في الزواج من ابنتي مرّةً أخرى؟.

قال بضيق:

- نعم. أنتَ بخيرٍ وما زلت كالحصان في العنفوان والعافية. لِمَ كلُّ هذه الخدعة المَحبوكة ليحدث كل هذا؟.

قال حموه برفق:

- فلنؤجل كل هذا إلى ما بعد. ألا ترى دقّة المَوقف وحساسيّته!.

نظر له بصمت. ثم أومأ برأسه. سار بعيدًا حتى جلس إلى مقعدٍ قديمٍ فخمٍ. فوجئ أن خالدًا جالسٌ وهو يتأمّل الفراغ. قال على سبيل مدّ جسرٍ من الودّ مع ابنه، ودٍّ حقيقيٍّ منه، ومشكوكٍ فيه من ابنه:

- هل أنت سعيد أكثر مع جدّك، أم معي حين كنّا معًا؟.

قال الفتى ببرود:

- سِيّان.

أغضبَته الإجابة. خشي لو ترك نفسه للجدال أن يلفت إليه الأنظار. نهض مُتّجهًا إلى ابنته فدوى الجالسة تحت شجرةٍ زينةٍ وما زالت ابتسامتها مُضيئةً، وكرّر عليها السؤال، فقالت بصدق:

- بالطبع أنتَ يا أبي، وإن كنتُ أحبُّ جدي وصحبتَه. لكن هل هذا يستحقُّ سؤالًا؟.

ابتسم برضا.. لهذا السبب هو يحب فدوى أكثر من العاقّ خالد.

راح يتأمّل الحشد الصغير الذي يتكلّم في القاعة الهائلة. كان هناك ضابطٌ في المخفر القريب من الفيلا اسمه أحمد، وسيمٌ ممشوق القوام، يتحرّك بأريحيّةٍ مُتّزنةٍ لو جاز التعبير، وبدا من الاحترام الذي يعامله به ظافر أن له مكانةً عنده. كان هناك رجل ضخم الجثة له كرش يمتدُّ لمترٍ أمامه، ويُمسك بسيجار كوبي فاخر، لا يكفُّ عن امتصاص مُقدّمته بجشع، وفور أن ينتهي يفتح علبة السيجار الذهبية الصغيرة ويخرج منها واحدًا آخر، وبالطبع يدور بلال ليلبي طلباتهم. قال وهو يتأمّل الوجوه:

- هل ما زالوا يحكون حكاياتهم الغريبة يا فدوى، يحكون ما يُفرحهم ويُؤلمهم وما يَترك ندوبًا في نفوسهم؟.

قالت مُبتسمةً:

- نعم يا أبي، ما زال الحال كما عليه.

قال:

- هل ما زال جدُّك يعطي جوائز للفائزين لأفضل قصّة؟.

أومأت برأسها وهي تضحك. قال طلال وهو يلقي نظرة على أمها

التي تتعرّف على الحاضرين:

- لكنّي لم أعلم أنّكم تحضرون هذه اللقاءات. أتذكّر أنّ جدّكِ كان يرفض حضورنا في أي لقاء كهذا!.

قالت فدوى بدهشةٍ مُحبّبة:

- إنه أمرٌ غريبٌ بالفعل! هل تعلم أنّنا لن نحضر هذا اللقاء أيضًا؟.

التفتَ إليها بشكلٍ حادٍّ وقال مُقطّبًا جبينه:

- حقًّا؟.

- نعم. فبمجرّد أن يتهيّأ الحاضرون للكلام، نغادر قبلها بلحظات. تعليمات جدّي صارمةٌ بذلك الشأن.

بدا عليه التفكير، بينما بدا عليها الحزن بغتة. سألها:

- ماذا؟.

بدا عليها التردّد.. فوضع يده على كتفها:

- أخبريني يا حبيبتي. ما الأمر؟.

تمالكت أعصابها وشجاعتَها، وقالت:

- الأسبوع الماضي رويتُ شيئًا لجدي وأمي ولم يصدّقني أحد.

ابتسم:

- تقصدين ذلك الهمس الغريب؟.

بدا عليها الضيق:

- أنت لا تصدّقُني مثلهم.

قال بحنان:

- ربما تأثّرتِ بالحكايات التي كنتُ أخبركِ بها في طفولتك يا حبيبتي.

هزّت رأسها:

- أنت لا تعرف شيئًا يا أبي. أنا لم أتكلم بكل الحقيقة، حتى لا تُصاب أمي بالذعر، فأنا أعرف من أين يأتي الهمس الغريب؟.

سألها:

- من أين؟.

كادت تتكلّم، لكن وجهها اربدّ، وقالت بذعرٍ خفيٍّ غامضٍ، رسم ظلالَه على وجهها:

- لا، لن أقول.

وأطبقت شفتيها. نظر إليها بحيرة، وكاد يلحُّ عليها، لكنّه تراجع في اللحظة الأخيرة. قال لنفسه بأن الليلة طويلة، وكل شيءٍ واردٌ حدوثه على رأي نادر، ومن ضمن هذه الأشياء أن تنحلّ الألسن المُنعقدة.

***

جلس الحضور وبدأ كلُّ واحدٍ منهم يحكي أغرب وأكثر شيءٍ أثّر فيه، والحقيقة أنّ الجلسة بدت مملّة في البداية لطلال، حتى إنه استأذن للانصراف، لكنّ نظرةً صارمةً من ظافر جعلَته يعود لمقعدِهِ

مُجدّدًا والضجر على وجهه.

كان الحاضرون عبارة عن ستّة أشخاص بالإضافة لفتاةٍ جميلةٍ في العشرينات، تبدو أوروبيّة الطابع، وثمّة طابعٌ حسنٌ في خدّها، فهُم معها سبعةٌ بخلاف مُضيفهم ظافر طبعًا.

قال ظافر:

- فليتحدث كلُّ واحدٍ من الحاضرين عن لحظة في حياته، ثمينةٍ ونفيسةٍ للغاية.

تكلّم أحمد:

- أصعب لحظة بالنسبة لي وأكثرها ألمًا هي تلك اللحظة التي فقدتُ فيها والدي وأنا صغير.

سأله ظافر:

- كنتَ في أي سن؟.

- ربّما التاسعة.

بدا الإشفاق على وجه ظافر، مُجرّد ظهور ذلك التعبير على وجهه يبدو غريبًا، وهو يتمتم:

- مسكين! لقد فقدتُه وأنا رجل في أوائل العقد الرّابع من عمري، ومع ذلك رحيله يترك في قلبي غصّةً وألمًا عظيمًا؛ لهذا قمتُ بعمل لوحةٍ لصورةٍ عفويةٍ التقطناها على الشاطئ، صورة تمثّل أغلى وأثمن لحظة لنا معًا. هذه اللحظات الثمينة، نخبئ خلفها حقيقتَنا، وأكثر أسرارنا حلكة؛ لأنّها في الواقع هي الوحيدة القادرة على

تحمُّلها.

اندفع نادر قائلًا:

- تقصد لوحة السمكة؟.

قالها بفخرٍ كأنّه يُشارك مُضيفَه شيئًا خاصًا، وثمّة ثقة متبادلة بينهما. أومأ ظافر برأسه. جاء الدور على الرجل ذي الكرش، والذي أشار إليه:

- وأنت يا سيّد نعيم؟.

داعب الرجل كرشه بيديه المَليئة بالخواتم، وقال:

- أصعب فترة بالنسبة لي حين اكتشفت كم أنا حمارٌ كبيرا.

ضحك الحاضرون بصوتٍ خافتٍ، وظافر يسأله بتحفُّظ:

- ولِمَ هذا يا سيدي؟.

أجابه نعيم:

- كانت أصعب فترة بالنسبة لي التي خسرت فيها ثروةً هائلةً من المال بسبب قرار أهوج، اتخذته في سرعةٍ بالغةٍ دون دراسةٍ. لقد احترق قلبي من الحزن.

وأطلق تنهيدةً حزينةً.. كتم بعض الحاضرين ضحكاتهم، وهم يشيحون بوجوههم. جاء الدور على إبراهيم وقال:

- أصعب موقفٍ مررتُ به ليس شخصيًا، بل يتعلّق بعملي بشكلٍ أو بآخر. كنت في زيارةٍ لصديق لي، يعمل طبيبًا، ويملك مستشفى نفسيًا مُتطورًا. ولاحظت هناك في إحدى الحجرات شابًا وسيمًا

يصرخ بدون انقطاع، وقد راح يجذب خصلات شعره بقسوة فتتمزّق في يديه، حتى كاد يصير أصلع! طبعًا كان الموقف مُثيرًا لي وشديد الغرابة، ويعتصر قلب كلّ من يراه! سألت صديقي عن هذا الشاب فتنهّد بحزن، وقال لقد تسبب في قتل عائلته كلها بدون تعمُّد، وحين علم بذلك أصابه الجنون المُختلِط بتأنيب الضمير والإحساس بالذنب! لقد أبعدنا عنه كل شيء حاد حتى لا يؤذي نفسه، لكن هذا لم يمنعه من إيذاء نفسه كما ترى.

بدا التأثر على جوه السامعين، وقد زلزلتهم هذه القصة، حتى إن ظافر قال كأنه يقول هذا الكلام لنفسه:

- نعم، لا يوجد شيء أبشع من تأنيب الضمير، وخصوصًا تلك الخطايا التي نرتكبها في حق من نحب.

لوهلةٍ ظنّ طلال أن ظافر سيبكي، لكن هذا الأخير تماسك بسرعةٍ مُدهشةٍ، وقال مُستديرًا إلى شاب وسيم اسمه فريد:

- وأنت يا سيّد فريد؟.

قال فريد بحماس:

- أجمل لحظة لي حين فزت بأعظم دور تليفزيوني قمتُ به في حياتي، فقد.....

وراح الشاب يحكي باستطراد مشوق، لكن طلال لم يهتمّ. لكنّه اعتدل في جلسته حين أتى الدور على نادر، الذي قال:

- أصعب لحظة بالنسبة لي، حين مات أخي الصغير ولم أجد مالًا له يساعده في إجراء العملية، حتى إن قلبه قد توقف عن العمل، لكنّه

عاد مرّةً أخرى بمعجزة، وطالبتني إدارة المستشفى بمبلغٍ كبيرٍ، وإلا ستكون العواقب وخيمةً، وهنالك قمت بفعل شيءٍ لم أكن أحب أن أفعله، فقد خنت صديقًا مُقرّبًا وبعته لأحدهم، حتى إني تسببتُ في خراب بيته!.

ارتبك طلال. لم يكن يعرف هذه المعلومة من قبل. إذًا وراء هذا الوجه الساخر يوجد وجهٌ آخر حزينٌ ذاق الآلام من قبل؛ ولذلك خان صداقتهما. ليس من أجل المال، لكن من أجل شقيقه.

ثم أتى الدور على طلال نفسه فقال له ظافر:

- وأنت يا أستاذ طلال؟ هل توجد لحظة معينة ثمينة في حياتك؟.

قال طلال بعد لحظةٍ:

- كل لحظاتي التي قضيتها مع زوجتي السابقة وولديّ تعد لحظات ثمينة بدون شكٍّ.

ثم حكّ ذقنَه:

- لكني سأتحدث عن لحظة غريبة. تعرفون الغجر الذين يدورون في الطرقات يقرؤون الطالع ويفتحون المندل، إلى آخر هذه الأشياء. قابلت عجوزًا ذات يومٍ صيفيٍّ حارٍّ، وكنتُ ضَجِرًا، فدعَتني العجوز للجلوس، فجلست، وقلت لنفسي أنه لا بأس من بعض التسلية. أمسكت العجوز بكفّي ثم قالت:

- قلبك شديد البياض، لكن أفعالك سوداء، ولو لم تحترس سيطغى السواد على البياض!". اعتدلت في جلستي بطبيعة الحال. أكملت العجوز:

- من فقدتَهم سيعودون مرّةً أخرى، لكن هناك فَقْدٌ وفَقْدٌ، وهناك عودةٌ وعودةٌ، وسيكون عليك أن تتخذ قرارًا من أجل أن تحمي من تُحبُّ، قرارًا يصعُب اتخاذُه، لكن عليك أن تخطو تلك الخطوة، التي ربما تكون خطوةً أخرى وأخيرةً. ثمّ تركت العجوز وأنا مُحمّل بالتساؤلات، وحتى الآن لم أفهم معنى قولها، وأغلب الظن أني سأموت وتصحبني حسرة الفضول الذي لم يرتوِ!.

ابتسم بعض الحضور، بينما وجم ظافر، وكأنما لامس كلام طلال وترًا بداخله، لكنّ هذا لم يمنعه من أن ينظر للضيفة السابعة والأخيرة، وهو يقول:

- أتي دورك يا سنيوريتا إيزابيلا.

ابتسمت الفتاة ذات الوجه الوضيء، وقالت بعربيّة سليمةٍ، بل وباللهجة المَحلّيّة، حتى إن الهمهمات المُتعجّبة راحت تتعالى إعجابًا بقدرتها اللغوية على الكلام:

- اسمي إيزابيلا، وأمي تُدعى ماريانا، وقد ماتَت منذ خمس سنوات، وقد نصحتني وهي على فراش الموت أن أبحث عن جدّي هنا، حتى لو لزم الأمر أن أتعلّم العربية بطلاقة، وقد جاهدتُ لكي تصلني دعوة لحضور ذلك اللقاء، إذ إنني أعرف أن مُقابلة السيد ظافر من الصعوبة بمكان، وقد حاولت بالفعل، لكنّي لم أستطع، وبالتالي فقد استغللت فرصة قدومي لهنا.

اعتدل ظافر في مكانه، بينما قال الدكتور إبراهيم بحذر:

- فرصة قدومك لهنا؟.

- نعم، للبحث عن جدي المُهندس العظيم خوسّيه، الرجل الذي صمّم هذه الفيلا!.

***

استلقى طلال على فراشه. وهو يتأمل السقف خطر له أن شيئًا غريبًا يحدث، والأغرب أن عقله يهيب به للمغادرة، ونفض يديه من تلك القصة المَليئة بالأكاذيب، والتي يعدُّها ظافر على مهل، لكن حبّه لعائلته يمنعه، ورغبته في استعادة أوار تطأ نداء عقله وتدوسه بقسوة.

الجلسة انتهت مُبكّرةً في تلك الليلة على غير العادة، بعد تصريح إيزابيلا الأخير، ولمح طلال دمعةً تسيل على وجه ظافر وهو ينهض ويحتضن كفّي الفتاة بيدَيه بمحبّةٍ شديدةٍ، وينتحي بها جانبًا، وقد حرص طلال أن يكون قريبًا بشكل يبدو عفويًا، وفي نفس الوقت يستمع لما يدور.

- كان أبوكِ صديقي يا بُنيتّي.

قالت إيزابيلا:

- أعرف أنه ميتٌ على الأغلب، لكنّي أرغب في دفن رفاته لو أمكن.

اقتادها ظافر بعيدًا، إلى الحديقة القابعة بالخارج. تردّد طلال، هل يُغادر المكان أم يظلُّ بين الحاضرين؟ ثم وجد حلًا بين الاثنين. اختار نافذةً تُطل على الحديقة، ورأى ظافر يُدخل إيزابيلا سيّارته الخاصة، وهي تحمل صندوقًا صغيرًا، وهي تنهمر في البكاء. بدا واضحًا أنه قد حقّق لها رغبتها. دخل ظافر القاعة، وبدا عليه

الارتياح، حتى إن إبراهيم قال بصوت مسموعٍ:

- من الفائز يا سيد ظافر؟.

قال ظافر:

- إنها حفيدة خوسيه، وهي من فازت طبعًا، وقد أعطيتها جائزتها الخاصة التي تستحقها.

تعالت الهمهمات أنه أهداها سيّارة، والبعض الآخر قال بأنه أعطاها مَبلغًا مُحترمًا، لكن ظافر وحده من كان يعرف أن الفتاة أخذت جائزتها الحقّة.

كاد طلال يُغمض يعنيه، بل أغمضهما فعلًا، وهو يدخل في دهاليز النوم الغامضة، ذلك حين سمع ذلك الهمس العجيب!

فتح عينيه بغتة، وحلقه جافٌ، ولديه رغبةٌ عارمةٌ في شرب بعض الماء. مدّ يده إلى المنضدة، وأخذ رشفةً من الدورق، وذلك حين تعالى الهمس مُجددًا، همسٌ عجيبٌ مُزعجٌ مُؤلمٌ، وكأنّه لغةٌ تَستخدم الإبر في الكتابة على جلده!

في مُحاولة منه للسيطرة على دقّات قلبه المُرتفعة، لم يجد طلال سبيلًا سوى التركيز في ذلك الهمس القادم من اللامكان. لوهلةٍ يظنّه قادمًا من أعلى، ثم ينظر لموطئ قدميه فيتخيّل أنّه قادمٌ من أعماق الأرض، ثم هل هو فعلًا قادمٌ من يمينه، أم ربما تكمنُ الحقيقة في شماله. أمّا من خلفه ومن أمامه فحدّث ولا حرج. هذا الجنون.. ذاك الهمس الغريب الشبيه بطنين النحل مع لمسةٍ ما بشريّةٍ، تجعل القلب يخفقُ بدون توقُّف، حتى لَيَخال أنه قد أُصيب بالجنون. ضاق

بالحجرة الواسعة، وبدت له أشبه بثقب إبرة تكاد تعتصر روحه ذاتَها، فغادرها إلى الممرّ الطويل والحجرات على جانبَيه.

استدعى انتباهه أن الهمس ما زال مُستمرًا. بل ويأتي من جهة مُعيّنة. بدت الدهشة على وجهه.. إنّها حُجرة خالد.. نهشه القلق على ابنه وهو يقترب من حجرته. لم تكن العلاقة جيّدةً قط بينه وبين ابنه، ولم تكن سيّئةً أيضًا، كانت أقرب للتعادل أو التجاهل من طرف ابنه، ولم يكن يفهم سبب ذلك. في سنواته الأولى كان خالد مُتعلّقًا بأبيه لأقصى حد، لكن بعدها بدأ يدخل عوالم خاصّةً به، وخاصةً بعد أن انفصل عن أمه، حيث كان في الثانية عشرة من عمره. وحين حدث ذلك لم يُبدِ أي ردّة فعل، بخلاف فدوى التي لم تكفّ عن البكاء. تأكّد في تلك اللحظة أن الفتيات أكثرَ رقّةً أيضًا من قساوة الأولاد، قبل أن يكتشف في وقت مُتأخّرٍ أنّهنّ يكبرنَ سريعًا أيضًا. اقترب أكثر من باب حجرة خالد، وطرق الباب برفق. لم يسمع مُجيبًا، فقط تعالَت حِدّة الهمس. ثم سمع تلك الخطوات الرّاكضة! هذا تطوّرٌ مُثيرٌ للاهتمام. خُيّل إليه أنّها تأتي من ممرٍّ آخر من ممرّات تلك الفيلا اللعينة، دفع الباب بِحَذر وهو خائفٌ وقَلِقٌ. تجمّد طلال في وِقفتِه لدقائقَ وهو يحاول أن يفهم ما يراه. كان ولده يحدّق إلى الجدار، ولوهلةٍ ظنّ أنه يُحدّث ظلّه المُترامي عليه، لكن بعد قليل تبيّن أنه ليس ظلّه بالضبط.

هذا ظلٌّ رأسه أضخم من ولده، مُنبعجٌ فيما تحت الرقبة الرفيعة، كأنّه بيضةٌ، وفي الأسفل يُوجد ما يُشبه شيئًا مُستلقيًا على الأرض مُتّصل به! هل يُمكن أن تصل ألاعيب الظل إلى هذا الحد؟ قلبُه قال بحزمٍ نعم من المُمكن. قلبُه أهاب به أن يركضَ مُبتعدًا عن

ذلك الخطر. لكنّه لم يفعل بالضّبط، وهو يقتربُ من خالد الجالس باعتدال، دون أن تتحرّك عضلةٌ واحدةٌ منه، ثمّ استدار خالد لأبيه ببطءٍ، وهنالك رأى طلال في وجه ابنه الهولَ ذاتَه!

***

(٨)

احتبسَت صرخةُ رعبٍ في جوفه فلم يُطلقْها، كلُّ ما استطاع فعله هو أن يتجمّد في مكانه، ريثما يتأكّد أنّه لا يتوهّم. إذًا كانت فدوى تقصد حجرة خالد! لكن لم يخطر ببالها قط أن الهمسَ نفسه لا يخرج من حجرة خالد فحسب، بل يخرج من خالد ذاته! مدّ يديه لعينَيه يدعكُهما بقوّةٍ، ثم فتحهما، وإذا بابنه كما تركه منذ لحظات يُهمهِم بهَمهَماتٍ غير مَفهومةٍ، وهو يحدّق إلى ظلّه.

لكن مهلًا، إنه ظلُّه بالفعل. بل وهو يرى ظلّه أيضًا بجواره، ولا شيء غريب! ابتلع ريقَه بتوتُّرٍ. ما الذي يحدث بالضبط؟ مرّةً أخرى يشعر برائحةٍ غريبةٍ كريهةٍ في تلك الفيلا، وهي ليسَت قادمةً من قلّة الاعتناء بها مثلًا، فالفيلا آيةٌ في النظافة، ويتمُّ تعطيرها يوميًا بكميات هائلة من مُعطرات الجوّ تتناسب مع حجمها الهائل، ثم منذ متى "يُشعَر" بالرائحة ولا تُشمُّ؟!

فجأة التفت إليه ولده، وقال بصوتٍ باردٍ، وعينَين أكثر برودةً:

- أبي؟ ماذا تفعل هنا؟.

قال طلال وهو يتأمّله:

- ألم تشعر بدخولي؟.

هزّ كتفيه:

- لا.

ثم نظر لنفسه وقال بضيق:

- هل حدث الأمر مرةً أخرى؟.

سأله:

- أي أمر؟.

أجابه:

- السير أثناء نومي. كما تراني فأنا بثياب النوم، فيبدو أني ذهبت للحمام، ثم بدلًا من العودة لفراشي حدّقت في الجدار كعادتي.

وبدا عليه الارتباك:

- لا أعرف لِمَ يحدث هذا لي.

تبيّن لطلال الصدق في نبرات ابنه. رَبَت على كتفه، وقال مُهوِّنًا، وقد وجدَها فرصةً لتحسين علاقته بابنه:

لا عليك. سنكتشف الأمر سويًا.

وجلس بجواره:

- منذ متى يحدث هذا؟.

ضرب الصبي كفيه بعضهما ببعض:

- منذ فترة.. تقول فدوى أنها شاهدَتني أكثر من مرة وأنا أسير أثناء النوم. عدّة أطباء فحصوني، وقالوا: لا خطر من الأمر، لكن فدوى نفسها تقول بأن الأمر لا يقتصر على سيري أثناء النوم، بل ثمّة هَمهَمةٌ غريبةٌ أقرب للهمس تصدر مني. إنها تُبالغ بدون شكٍّ.

كاد يُخبره بأنها لا تبالغ، بل إنه سمع الهمس بنفسه، ورآه يصدر من

بين شفتيه، لكنه التزم الصمت. وضحك خالد، وربّما هي المرة الأولى التي يراه فيها يضحك منذ سنواتٍ طويلةٍ، وهو يقول:

- بل إن الحمقاء تقول بأنّ ظلًا يُشبه الوحش، كان يزحف على الجدار أثناء خروج الهمس منّي!.

***

(٩)

مُجدّدًا لم ينطق طلال بكلمة. هو لم يتخيل إذًا.. كان هناك وحش على الجدار يزحف!

سأله: هل يعلم جدّك وأمّك بذلك؟".

- هزّ رأسه أن لا.

رَبَت على كتفه مُجدّدًا:

- اخلد للنوم يا بُنيّ.

سأله وهو يرقد على الفراش بالفعل:

- كم الوقت الآن يا أبي؟.

نظر في ساعته فإذا الليل ما زال في مُنتصفه. همّ بإخباره لكن عينا خالد انغلقتا وسقط في نومٍ عميقٍ. بدت عليه الدهشة بسبب السرعة في حدوث ذلك، لكنّه عزا ذلك لأن الفتى كان مرهقًا، وتحرُّكه الكثير وهو نائم، وتلك الهَمهَمات الصادرة منه أرهقَته بطبيعة الحال. تأكّد من إحكام الغطاء عليه، ثم ألقى نظرة على ظلّه المَوجود على الجدار، وهزّ رأسه تعجبًا. غادر الحجرة، وتطلع للممرّ الممتد أمامه، ولفت انتباهه تلك الخطوات التي تقترب. لا يعرف لِمَ اختبأ خلف ذلك العمود الضخم المُزيّن بالزخارف، والذي أخفى جسده بالكامل! ربّما لأن الخطوات نفسها كانت مُتلصّصةً، وكأنّ صاحبَها لا يُريد أن يراه أحد. اقتربت الخطوات أكثر ثم توقّفت. نظر طلال بحذر ولدهشته كان ظافر يقف أمام حجرةِ مكتبهِ، ويفتحهُ بمفتاحه الخاص، ثم يدلف للداخل. تذكّر طلال حديث نادر معه منذ سنوات،

وعن الحوار الذي أجراه معه في مكتبه، وما لديه من فضولٍ بأن يرى مكتبه في تلك اللّحظة. قال لنفسه بأنّها حجرة مكتبٍ كأي حجرة مكتب آخر، لكن الفضول لم يخمد بداخله، بل تزايدَ وهو يخطو بِحذرٍ ناحية حجرة المكتب التي تبعد عنه أمتارًا قليلة.

كان الباب مُغلقًا من الداخل كما هو مُتوقّعٌ، لكنّه انحنى لأسفل، ونظر عبر ثُقب الباب. لوهلة قابلت عيناه أكداس الكتب المُرتّبة على الرفوف، والتي بدت فخمةً ككلّ شيءٍ آخر في الحجرة، من أنتيكاتٍ وتماثيلَ صغيرةٍ. ثم ظهر وجه ظافر، حيث كان يقف بظهرٍ مُنحنٍ، ووقفة غير عسكرية بالمرّة، ويتأمل صورةً ضخمةً، تحتل ثلاثة أرباع أحد الجدران، وتمثّله وهو يُمسك بسمكة مع والده. إنها الصورة التي تحدّث عنها نادر من قبل. يبدو أن لها أهميةً كُبرى عنده.

ثم حدث بعدها شيءٌ غريبٌ. رمق ظافر الربع الخالي من الجدار بنظرة تحمل من المقت الشيء الكثير، وكأن بينه وبين ذاك الرُبع ثأرٌ شخصيٌ!

ثم اقتربَتْ خطوات أخرى، جعلت طلال يهب خلف أقرب عمودٍ إليه، وهو تصرُفٌ أدهشه، فما الذي يخشاه، أو ما الذي يجعل رجلًا ناضجًا مثله يتصرّف مثل اللُصوص!

دارت هذه الأفكار في ذهنه، وخطر له أن يتحرّك من خلف العمود ويتصرف بشكل طبيعي، لكن باب الحجرة انفتح وانغلق في وقت قصير. خطر له أن يتحرّك من مكانه، ويتّجه لحجرته ويلقي نفسه على الفراش، فهو ليس مُعتادًا على السهر لذلك الوقت. في تلك اللحظة خُيّل إليه أنه سمع ما يبدو أنّها صرخةٌ. توتّرَ في وقفته،

وأصاب عقلَه الشّللُ، حتى وهو يُخيل إليه أن باب الحجرة ينفتح وينغلق مرة أخرى. أخيرًا تحرّك وأطل برأسه، ولمح شخصًا يتوارى في نهاية الممرّ، حيث الطريق للقاعة التي يجلس فيها الضيوف يتسامرون. هو إذًا من الضيوف؟ لكن مَن؟ وماذا كان يفعل مع ظافر؟ تحرك بفضولٍ ناحية باب الحجرة، ونظر من الثقب مرة أخرى، ولوهلة لم يفهم ما يراه. كان ظافر جالسًا مُتّكئًا للأمام، ورأسه مُستقرٌ على سطح مَكتبه الفاخر، وهو ينظر للأمام نظرةً خاوية وكأنه يتأمل الفراغ، وللحظة بدا لطلال أنه ينظر إليه مباشرة، حتى إن قَشعريرةً سرت في جسده وهو يتأمّل تلك النظرة العجيبة!

ثم ظهر ذلك الظلُّ.

ظل يزحف على الجدار، رآه بطرف عينه وهو يقترب منه، حتى إنه استدار بحركة حادة ناظرًا لأعلى، وإذا هو بلال الذي قال له متعجبًا:

- ماذا تفعل هنا يا أستاذ طلال؟.

أشار طلال إشارة مُبهمةً للحجرة، وقال بصوت ملآن بالانفعالات:

- ظافر!.

يبدو أن التعبيرات على وجهه كانت مُريعةً لدرجة جعلت بلال يدفع باب الحجرة فإذا هو مُغلقٌ، فيدقُّ عليه بقلقٍ:

- سيد ظافر! هل أنتَ بخير؟.

قال طلال بصوت مُرهقٍ:

- لا أظن أنه في حالة تَسمحُ له بالرد عليك.

نظرةٌ حادّةٌ شرسةٌ تكوّنت على وجه بلال، والذي مدّ يديه لسلسلة مفاتيح عملاقة مُتدلية من حزامه، ورفعها بمهارةٍ مُنتقيًا مِفتاحًا بعينه وكاد يدسّه في الثقب، لكنّه توقّف قائلًا:

- الباب مفتوحٌ بالفعل.

ودفع الباب المُوارب.

وهناك، كان ظافر راقدًا برأسه المُتفجر على سطح المكتب، والدمُ ينزُف منه، بينما على الجدار تكوّنث خيوطٌ غليظةٌ من الدم، مع بقايا من شظايا مخه راحت تسيل ببطءٍ على الجدارا

***

ظهر الوجوم على الوجوه الحزينة، وهم يرون مُضيفَهم ميتًا، بينما لم تكفّ فدوى وأوار عن البكاء، على عكس خالد الذي بدا التأثر على وجهه وهو يجلس ساكنًا دون أن يذرف دمعةً واحدةً. انتهى بلال من رواية ما حدث، والضابط أحمد يستمع إليه باهتمام بالغ. ساد الصمت وأحمد يتحرك ناحية الجدار، وقال:

- ثمّة من أمسكه ودفعه للجدار، وراح يضربه بقسوة.

قال أحد الحاضرين بدهشةٍ:

- وكيف تعرف هذا يا حضرة الضابط؟.

شبك أحمد يديه على هيئة شبكةٍ مُتعانقةٍ وقال:

- مسار الدم يوحي بذلك.

قال بلال بلهجةٍ احترافيةٍ هادئةٍ:

- لا بد أن الوغد الذي فعل ذلك كان يملك قوةً هائلةً، حتى يستطيع رفع السيد ظافر للجدار.

قال أحمد مُستحسنًا:

- صحيح. هو ذاك.

ثم أردف:

- إنها جريمةُ كراهيةٍ أيضًا.

سأله آخر:

- لماذا تقول هذا؟.

أجابه:

- بسبب تكرار ضرب رأسه بالجدار أكثر من مرة. هذه فعلةُ شخصٍ يملك رصيدًا من الكراهية لا يُستهان به ناحية الفقيد.

ثم تأمّل الحاضرين بنظرةٍ ثاقبةٍ:

- ترى من يملك هذه الصفة في الموجودين لارتكاب جريمةٍ بشعةٍ كهذه؟.

قال البدين بعصبيةٍ:

- ماذا تقول؟ هل تشكّ بأن القاتل من بيننا؟.

قال أحمد بثقة:

- أنا لا أشك. أنا مُتأكّد أنه بينكم.

مسحت أوار دموعَها وقالت:

- أنا أعرف من القاتل.

وأشارت لأحد الحاضرين:

- إنه هو!.

وحين استدارت الأعين إلى حيث تشير احتقن وجه طلال وقال بنبرة فزعٍ:

- ماذا تقولين يا أوار؟ هل تظنّين أنّني القاتل؟.

قالت بغِلٍّ:

- بل أنتَ هو، وعندي الدليل!.

وساد صمتٌ مذهلٌ في حجرة المكتب.

***

(١٠)

اقترب منها أحمد وقال:

- لماذا تقولين هذا يا سيدتي؟.

كان وجه طلال مُحتقنًا، أما بلال فقد قال بحيرة:

- لكن كيف يا سيدتي يفعل ذلك؟.

قال أحمد:

- لا تنسَ أن الباب كان مُواربًا بالفعل.

قال بلال:

- هذا غير منطقي. لو كان هو القاتل للاذ بالفرار. لماذا يقف أمام الباب بعد ارتكاب جريمته؟.

صرخت فدوى بانهيار:

- ماذا تقولون؟ أبي ليس بقاتل.

وأكدّ خالد قولها:

- من المُستحيل أن يكون أبي قاتلًا. لقد كان معي في حجرتي، ولم يتركني إلا وأنا في نوم عميقٍ، قبل أن يُوقظني بكاء فدوى.

رمقه طلال بامتنانٍ. لقد دافع عنه ابنُه بحرارة، وهذا شيءٌ يُثلج صدرَه وسط تلك التهمة البَشِعة. قال أحمد سائلًا الفتى:

- كان ذلك قبل الجريمة. من السهل أن يتركَك وينصرف ليقتلَ جدَّك.

صرخت فدوى مُجدّدًا رافضةً هذا الجنون الذي يُقال، بينما عقد بلال حاجبَيه، وكأنّه يُعلن عدم اقتناعه بذلك، بينما الأعين تستدير مرة أخرى إلى أوار التي قالت وهي تستدير نحو طلال:

- ألست أنتَ من أخبرني بأنك تتمنّى أن تُهشَّم رأسه على الجدار؟.

قال بضيق، ودماؤه تغلي بسبب كونه لم يتوقّع أن يأتي الاتّهام منها هي بالذات:

- لا أعرف إذا كنتِ تعرفين أم لا، لكنّ فعل التمني يكون لأشياءَ يصعبُ حدوثها.

صرخت في وجهه:

- كفاك تلاعبًا بالألفاظ، كما كنتَ تتلاعب بي طيلة السنوات الماضية! رائحة خياناتك صارت لا تُطاق!.

انفجر عليها:

- ألم يخبركِ أبوك الوغد بالحقيقة وأنني بريءٌ ممّا أنا مُتّهمٌ به؟.

صرخت في وجهه أكثر:

- هل أُكذّب عينيّ اللّتين رأتاك؟.

رفع أحمد يده:

- هل نحن نتكلّم عن جريمة قتلٍ أم خيانةِ الآن؟.

التفتَت إليه أوار بوجه مُحتقنٍ:

- الاثنان.

قال أحمد:

- من حسن الحظ أني كنتُ موجودًا. لا، بل للإنصاف لم أكن لآتي لولا دعوةُ الفقيد لي.

سأله طلال بتوجُّس:

- هل هي المرة الأولى التي تحضر إلى هنا؟.

أجابه:

- هذا صحيحٌ. ربّما يعلم بعضكم أني أعمل في المخفر القريب من الفيلا منذ سنوات ليست بالقليلة، وهذا أتاح لي أن أراقب الفيلا من كثَب. لفت نظري الجلسات الأسبوعية التي تحدث في الفيلا، حيث يقوم السيد ظافر بدعوة عددٍ مُعيّنٍ من الأشخاص كلّ أسبوع، والمُثير للغرابة أنّهم كانوا دومًا وجوهًا جديدةً لم تأتِ من قبل. أي أنّ من يحضر لذلك اللقاء مرّةً، لا يحضر مرّةً أخرى!.

وبدا عليه الشرود لحظةً، كأنه يحاول استيعاب ما يحدث:

- ثم اتصل بي وأبلغني أنّي مَدعوٌ أخيرًا.

قال نادر ببساطة:

- لم يكن يعلم أنه يدعوك لموعد موته! إنها مُفارقةٌ والحق يُقال! كأنه يريد منك أن تعرف من قتلَه!.

بدا الوُجومُ المَشوبُ بالقلق على الحاضرين، بينما قال أحمد ببطءٍ، وكأنه يستوعب:

- هل من المُمكن أن يكونَ الفقيد قد عرف أنه سيُقتل، أو شعر

بالشك على الأقل في احتمالية حدوث ذلك؟.

تبادلوا نظرةً حيرى، بينما قال نادر بذات البساطة، وهو يهزُّ كتفيه:

- كل شيءٍ جائز.

التفت أحمد إلى بلال:

- هاتِ لنا هواتفنا يا بلال. حان الوقت لكي تحضر الشرطة وتتولى الأمر.

أومأ بلال، ثم اختفى للحظات، وعاد حاملًا الصندوق المعدني، ووضعه على مِنضدةٍ رخامية في مُنتصف القاعة، ثم رفع الغطاء، ثم تراجع بدهشة ارتسمت واضحةً على وجهه. أطلُّوا برؤوسهم ونظروا فإذا بالهواتف مُحطمة عن بكرة أبيها!

قال أحمد بغضب وهو ينظر لبلال:

- ما هذا يا بلال؟ من حطّم هواتفنا؟ هل هكذا تُحافظون على أمانات ضيوفكم.

بدا الحرج على وجه بلال، وكأنّما قد أُهين:

- لا أعرف يا حضرة الضابط. أنا مُندهش وربما أكثر منك. الصندوق أضعه في حجرة خاصةٍ لحين انتهاء الليلة، ثم أُعيد الهواتف للضيوف. أوّل مرة أتعرض لهذا الموقف المُحرج.

تأمل أحمد كومة الهواتف التي تحوّلت لُخردة، ثم قال ببطء:

- لا بأس. المَخفر قريب من هنا. أستأذنك يا بلال أن تذهب وتستدعي الضابط عمر، إنها مناوبته الليلة.

توجه بلال إلى الباب، لكن فجأة انسدلث ستائر من المعدن على الجدران، ومن ضمنها بوابة الفيلا ذاتها!

***

(١١)

ساد صمتٌ، قطعه أحمد هو يفحص الستائر المَعدنية، بل ووصل به الأمر أن يصعد لأعلى ويفحص الطابق الأول بعد الأرضي، وكانت النتيجة واضحةً على وجهه، وهو يُمسك بجهازٍ صغيرٍ مُحطِّمٍ:

- هل تعلمون ما هذا أيها السادة؟.

نظرةٌ حائرةٌ على الوجوه. قال:

- إنه مؤقِّت ساعةٍ رقميٍّ يُجهِّز لوقتٍ مُعيّن، لإنجاز مَهمّة بعينها، وفي حالتنا هذه كانت مَهمّةُ هذا الجهاز هي إسدال الستائر على الفيلا وجدرانها وشرفاتها، ومع تحطُّم هواتفنا فقد صرنا معزولين عن العالم الخارجي. بالمُناسبة: الإنترنت مفصولٌ أيضًا بشكلٍ غامضٍ، لو فكّر أحدكم أن يستخدم أي جهاز كمبيوتر محمولٍ لإرسال بريد إلكتروني أو ما شابه.

قالت أوار بارتباك، وقد بدا أن الصورة المُفزعة لم تصل إليها بعد:

- ما معنى هذا؟.

قال أحمد وهو يجول بوجهه في الحاضرين:

- معناه أنّ أحدكم قد عزلنا عن العالم الخارجي. شخصٌ مجنونٌ قاتلٌ تخلّص من صاحب هذه الفيلا لسببٍ غامضٍ، وعزلَنا لنفس السبب أو لسبب آخر. ليس هذا المُهم، المُهم أننا في خطر ونحن بصحبة ذلك المجنون.

وأشار إليهم:

- وهو وسطكم بدون شك.

قال طلال بعصبية:

- لِمَ تستثني نفسك. ما يجري علينا يجري عليك.

قال أحمد بضيق:

- صحيح.. لكن حتى يثبت هذا فأنا من سأتولى التحقيق هنا بحكم مَنصبي.

تمتمت أوار:

- أنتم تُضيّعون وقتكم.

سألها أحمد:

- مَعذرةً يا سيدتي، ارفعي صوتك من فضلك.

رفعت أوار صوتها:

- أنتم تضيعون وقتكم بلا طائل. القاتل هو طلال. لا أعرف لماذا تتجاهلون هذه الحقيقة!.

احتقن وجه طلال، بينما قال أحمد بتحفُّظ:

- لا نتجاهلها، ولكن الأمور لا تسير على هذا النحو السطحي. لا بدّ من طرح الأسئلة، حسنًا الكثير من الأسئلة في الواقع.

لوّحت بيديها:

- أنت تضيّع وقتك، وبعد أن تكتشف أن طلال هو القاتل، دعني أضحك وقتها.

أمسكت فدوى أمّها من ذراعها الأيمن، وقالت بحنقٍ رغم وجهِها المغسول بالدموع:

- ماذا تقولين يا أمي!.

انفجرت أوار في البكاء، فحلّق صمتٌ فوق المكان، وقد تهاوى طلال جالسًا ثم تبعه الباقون، وقد تناثروا على المقاعد، بينما جثّة ظافر تطل عليهم. تحرك بلال ووضع ملاءةً على الجثّة، فحنى أحمد رأسه في استحسان. بعد دقيقةٍ أو دقيقتَين، قال أحمد المُنتصب كتمثالٍ إغريقيّ:

- والآن لنبدأ. لكن قبل أن نبدأ من المهم أن يُعرِّف الحاضرون عن أنفسهم، وماذا يعملون، وكيف أتوا إلى هنا.

بدا الامتعاض على البعض. قال أحمد مُشجّعًا:

- سأبدأ بنفسي. اسمي أحمد ضابطٌ بالمخفر منذ ستّ سنوات، تلقّيت دعوةً من السيد ظافر بالهاتف، ثم تبعَتها بطاقة دعوة وصلت للمخفر مع مرسالٍ خاص.

وأبرز الدعوةَ بالفعل، ذات الخط الكوفي المُميز المصنوع من خيوط الذهب!

نهض طلال، وقال:

- اسمي طلال، أعمل في الإدارة المالية، ودعاني السيد ظافر بنفسه حين كنت في المستشفى أُعالَج من حادثٍ صعبٍ، وقد أعطاني الدعوة بنفسه.

وأبرزها أمام الحاضرين الذين قرؤوا كلماتها بسهولة.

نهض الرجل البدين:

- اسمي نعيم. رجل أعمال، وقد وصلتني الدعوة مع سكرتيري الخاص، حيث وصلت البطاقة لمقرّ الشركة مع مرسالٍ خاص.

لم يتحرك الدكتور إبراهيم من مكانه، وأبرز البطاقة قائلًا بحزن تجلى واضحًا على وجهه:

- سنوات وأنا ألحُّ على ظافر لكي يدعوني لواحدة من جلساته هذه، لكنّه كان يرفض بإصرارٍ عجيبٍ، حتى مللتُ السؤال ونفضته عن رأسي. ثم فجأةً أعطاني تلك الدعوة للحضور.

هزّ أحمد رأسه مُتفهّمًا. وتلاقت عيناه بمن لم ينهضوا بعد. نهض نادر بتثاقل وقال وهو يُخرج بطاقة الدعوة:

اسمي نادر، وأنا أعمل صحفيًا بقسم التحقيقات بواحدة من الصحف المُتوسطة من حيث الشهرة، وكصحفي فقد كانت واحدةً من أحلامي حضور ذلك اللقاء الغامض، ليس كصحفي فحسب، ولكن كشخصٍ فضوليٍّ، وكما تعلمون فإن الفضول قد قتل القط كما يقول....

زمجر طلال بغضبٍ مكتومٍ جعل نادرًا يتوقّف عن الكلام هو يبتسم باستمتاعٍ. قال أحمد وقد لاحظ النظرات النارية المُتبادلة بين طلال ونادر:

- هل يوجد لديكما سابق معرفة؟.

قال طلال بخشونة:

- يُمكنك أن تقول هذا.

نظرة مُستفهِمةً على وجه أحمد، لَكَمَن لم تُرضِه هذه الإجابة المُقتضَبة. قال نادر:

- كنّا صديقَين في الماضي، ونحن الآن عدوّان نلعب في المنطقة الآمنة لو جاز التعبير.

حكّ أحمد ذقنه بتشكُّكٍ. ثم أشار للرجلَين المُتبقِّيَين.

أما الأخير فقد نهض، وألقى نظرةً واثقةً على من حوله. كان وسيمًا ممشوق القوام، يبدو رياضيًا، وقال وهو يضع يده في جيبه:

- اسمي فريد، وأنا مُمثِّلٌ تلفزيوني، وقد....

وتوقَّف عن الكلام والدّهشة على وُجهه، وهو يقول:

- عجبًا! أين بطاقتي؟.

اعتدل أحمد في وقفته ورمقَه بتفحُّصٍ، والشاب يبحث في أنحاء ثيابه عن البطاقة. لاحت في الأعين نظرة اتّهام، فبدا الذعر على وجهه:

- لا أعرف أين ذهبَت؟ حقًّا أنا مدعوٌّ إلى هنا، ويمكن للمِرسال الخاصّ الذي أرسله السيد ظافر أن يُؤكِّد ذلك.

قال بلال:

- للأسف، المسؤول عن إرسال البطاقات واسمه وليد- منزله يقبع في الناحية الأخرى من المدينة، وبما أنّنا مُنعزلون الآن عن العالم الخارجي، فسيغدو التأكد من ذلك مُستحيلًا.

كاد الشاب يبكي:

- لكنّي من المدعوين.

قال أحمد وهو يرفع يده في حسم:

- إمّا أنك من المَدعوّين فعلًا، وقام أحدهم بسرقة بطاقتِك لغرضٍ ما، مثل أن نشكّ فيك وتتحوّل أبصارنا عنه، أو أنك القاتل، ووقعتَ في شرّ أعمالك.

انفجر الشاب في بكاءٍ عجيبٍ، جعل الجميع يُشفقون عليه. أمّا نادر فقد قال بسخرية:

- لا تنسوا أنّه مُمثّل، وهؤلاء يأتون بالدموع بمجرّد الأمر فحسب!.

قال أحمد:

- فلنهدأ ولنسترخِ. الليلة طويلةٌ، فمن يُريد أن يذهب للحمام أو يحرّك ساقيه قليلًا فليفعل.

بدا الارتياح على وجوه الجميع، وانطلق فريد للحمام بطبيعة الحال، وتوقّف أمام المرآة، ودفع صنبور الماء ليتدفّق على يديه. راح يغسل وجهه من الدموع، وهو يلوم نفسه على أنّ الذعر قد انتابه أمامهم. قال لنفسه لائمًا أنّ مشروع نجوميّته كممثّلٍ صار في مَهبّ الريح. سمع خطواتٍ تقترب من خلفِه، فاستدار بشكلٍ تلقائيٍّ للرجل الذي دخل عليه، ثم قال بابتسامة مُحرجةٍ:

- أنت؟! معذرةً، فأنا لم.....

انقضّ عليه الرجل الغامضُ، وأحاط رقبتَه بيدَيه، وبقوةٍ هائلةٍ

أدارها لعكس عقارب الساعة بسرعةٍ رهيبةٍ لم تُتح فرصةً لفريد أن يصرخ من الألم! فسقط على الأرض برأسٍ مُلتويةٍ، وعينَين خاليتَين من الحياة!

***

(١٢)

ساد الصمتُ، وهم يُحدّقون إلى الجثّة الراقدة أمامَهم. قال أحمد بضيق:

- هل من المُمكن أن أعرف ماذا حدث بالضبط؟.

قال طلال بتوتر:

- للمرة السابعة أُخبرك بأنّي قد وجدته على أرضيّة الحمام مَيتًا. ما الذي يصعب فهمه في ذلك؟.

طبعًا كان هناك ذعر. كانوا يتفرّقون في أنحاء القاعة، ومنهم من غادرها للممرّ بالخارج، وبعضهم يتصوّر بأنها خدعةٌ. من يدري قد يكون العجوز حيًا، وهذه مُجرّد تمثيليّةٍ لبثّ الإثارة في عروقِهم. هكذا فكّر البعض. إلى حين خرج طلال من الحمام مُمتقعَ الوجه وقال بصوت مُرتبكٍ:

- جثّة الممثل المَدعوّ فريد على أرضية الحمام.

حين قال طلال ذلك، أخذوا دقيقةً لكي يهضموا كلامَه، ثم دقيقة أخرى وهم يعبون نحو الحمام يتقدّمهم أحمد، ثم دقيقة ثالثة يحدّقون في الجثة الميتة جدًا لو جاز التعبير، وذاك الالتواء في الرقبة يبدو بشعًا بالإضافة لكونه مُميتًا طبعًا، ثم في الدقيقة الرابعة بكت فدوى، حتى إن أمّها أخذتها في حضنها، بينما طلال يربت على كتفها مُواسيًا، لكن أوار أبعدَته عنها بغلظة. قال أحمد بتوتر، بعد أن سمع التفاصيل من طلال أكثر من مرة:

- دخلنا في مرحلةٍ خطرةٍ بمقتل فريد المِسكين.

قال إبراهيم بلوم:

- لقد دخلناها حين قُتِل ظافر يا سيادة الضابط.

البعض هزَّ رأسه موافقًا. فجأة ضحكت أوار:

- حمقى!.

التفت إليها الجميع بدهشة. واصلت وهي تصرخ:

- لماذا تتخبطون في طريقكم؟ كل الدلائل تقول أنه هو القاتل. كيف لا تعرفون هذا حتى الآن.

تمتم أحمد بضيق:

- لم أنتِ مُتحاملةٌ على السيد طلال لهذه الدرجة؟ أرجو ألا تُدخلي أمورَكما الشخصية فيما نحن فيه الآن.

قالت بثورة:

- كل شيءٍ مُرتبطٌ يا حضرة الضابط، ومن يكسر قلبًا يُمكنه أن يكسر عنقًا.

رمقها طلال بدهشةٍ. أمعقول أنها ما زالت تتذكر الأمر برغم مرور خمس سنوات على حدوثه؟ معنى هذا أنها لم تتزوّج ليس من أجل رعايتها لفدوى وخالد فحسب، بل ولأنها ما زالت تحبُّه!

لكن برغم ذلك تتّهمه بوضوحٍ أنه من قتل والدها، وأنه من قتل فريد هذا! كيف يستقيم هذا مع ذاك؟!

قالت فدوى بغتةً:

- أين الدكتور إبراهيم؟.

تلفّتوا حولَهم جميعًا. بالفعل لم يكن موجودًا. كان الدكتور إبراهيم ضئيلَ الجسد رشيقَ الحركة، ولن يندهشوا لو علموا بأنه قد ذهب للحمام مثلًا، لكن خالد قال صارخًا:

- إنه هنا!.

هرعوا إليه، وخلف مقعدٍ ضخم كان يستقر جسد إبراهيم. قالت أوار برعب:

- هل مات؟.

قال أحمد وهو يجسُّ نبضه:

- لا، بل هو فاقدٌ لوعيه. غريب!.

ثم رمق الحاضرين مجددًا:

- أرى أن نتفرّق. كلُّ واحد منا يذهب لحجرته ويحتمي بها.

قال نعيم بذعرٍ:

- هل جُننت؟ هل تترك الفرصة للقاتل أن يصطادنا واحدًا بعد الآخر؟.

أخذ أحمد نفسًا عميقًا، ثم قال:

- بالعكس. كلما افترقنا، كلما ظهرت الحقيقة مُبكرًا. انقلوا الدكتور إبراهيم لحجرته، سأكون مُرافقه الشخصي.

قال طلال:

- سأرافق فدوى وخالد لحجرتَيهما.

ثم أردف بخشونة:

- وأمّهما لو أرادت.

أشاحت بوجهها وقالت ببرودٍ:

- ألا تخشى أن تزكّم أنوفَهم رائحة خيانتك؟.

انفجر فيها:

- ماذا دهاكِ أيتها الحمقاء؟ لماذا تعامليننَي هكذا؟.

قالت بمقتٍ:

- أكثر ما أكرهُهُ هو خروجك من تلك الحادثة حيًّا. موتك فحسب كان يمكن أن يجعلني أسامحك قليلًا.

التمعت أعين الحاضرين، وهم يرغبون في حدوث مُشاجرةٍ، لكنّهم تذكّروا الموقف الدقيق الذي هم فيه، فشعر بعضهم بالخجل. انصرف كل واحد منهم لحجرته. وتبقى أحمد بصحبة إبراهيم الفاقد لوعيه. ظهر بلال وقال بهدوء:

- هل يأمر سيادة الضابط بشيء؟ طعام أو شراب، أو خلافهما؟.

سأله أحمد باهتمام:

- منذ متى تعرف الفقيد ظافر يا بلال؟.

ابتسم بلال ابتسامةً حزينةً:

- منذ زمن طويل. لقد مات أبواي في سنٍّ مبكرةٍ جدًّا، وكنتُ أجمع

قُوت يومي بالتسوُّل، حتى قابلني السيد ظافر ذات يوم مُمطرٍ في أحد الأزقة.

- كم كان عمرك وقتها؟.

- أعتقد في العاشرة

- هل تذكر لقاءكما جيدًا؟.

رفَّت ابتسامةٌ بسيطةٌ على شفتَي بلال، وكأنه يتذكر ذكرى سعيدة:

- كنت جائعًا في تلك الليلة إلى أقصى حد، حيث لم يدخل الطعام جوفي منذ ثلاثة أيام بلياليها. كان السيد ظافر يعيش حياةً بسيطةً حينذاك، ولم يكن قد بدأ رحلتَه للثراء بعد. رجوتُه أن يُطعمَني، ففعل ما هو أكثر من ذلك. استضافَني واعتبرَني من أهله، ومن وقتها وأنا لم أفارقه قط. ساعدته في بناء فيلّته هذه من خلال مُراقبة العمّال واستخراج أفضل ما لديهم، وذلك بالمُراقبة الصارمة، والمُتابعة الدورية.

- ومن صاحب فكرة الستائر المَعدنية هذه؟.

- إنه السيد ظافر. قال أنه يريد تأمين الفيلا بأكبر قدر مُمكن. طبعًا لم يفعل هذا إلا منذ سنوات قليلة.

قال أحمد مفكرًا:

- لاحظتُ أن الستائر جديدةٌ نوعًا ما بالفعل. ترى من تظنُّه قد يستفيد من مَقتل السيد ظافر؟.

تنهّد بلال وقال:

- ومن سيستفيد من قتله؟ الكل يعرف أن ثروته كلّها لابنته الوحيدة، ولولدَيها من بعدها.

- هل طلال سيرث؟.

- إنه طليق السيدة أوار فحسب، وطبعًا لن يرث شيئًا.

- هل تظنه ثأرًا شخصيًا مثلًا؟.

قال بلال بتحفظ:

- لا أعلم يا سيدي؟ هذا أمرٌ تُقرّره الشرطة المُتمثّلة في شخصك.

ابتسم أحمد:

- أشكرك يا بلال. يُمكنك الانصراف.

حنى بلال رأسه، ثم غادر، بينما بدا التفكير على وجه أحمد وهو يسير بخطوات دائريّة في القاعة، ثم توقّف مبهوتًا أمام جثّة فريد، وقد استرعى انتباهه شيءٌ غريبٌ. جثا على ركبتَيه، وتفحّص الجثة بعينَيه، ولدهشته وجد دودةً رماديّةً صغيرةً تنزلقُ على صوان الأذن، ثم تواصل سيرها البطيء إلى جهة غير معلومة! تمتم أحمد:

- عجبًا!.

نبّهت حركة من إبراهيم فأولى أحمد انتباهه إليه، وقال وهو يعاونه على الاعتدال:

- هل أنت بخير يا دكتور إبراهيم؟.

- لا أعرف. جسدي يرتجُّ كلُّه ومعه مخي بالطبع.

ابتسم أحمد:

- هل سقوطك البسيط من هذه الأريكة يتسبب في فقدانك للوعي؟.

قال إبراهيم بضيق:

- أنا لم أسقط، لقد دُفِعتُ للسقوط!.

سأله أحمد بدهشة:

- ومن يُمكنه أن يفعل ذلك؟.

هتف إبراهيم وهو يُشير للخلف برعب:

- إنه خلفك؟.

استدار أحمد برشاقةٍ للخلف، ليجدَ ذلك الشخص يُحدِّق إليه وهو يبتسم بشراسةٍ، وهو يمسك بيدَيه خنجرًا ماضيًا:

- إذًا فهو أنت؟ آخر من كنتُ أتوقَّعه!.

لم ينطق القاتل، فقد انقضَّ على إبراهيم، وغرس السكينَ في عنقه، وهنا تفجَّر الدم من عنق المسكين وهو يخور كالثور، ثم يسقط أرضًا، لكن بلا نهوض تلك المرة!

بدا الغضب الشديد على أحمد، وشعر بالندم لأنه لم يُحضر مُسدَّسه، ولكنَّه بدلًا من ذلك دفع القاتلَ في صدره، لكنَّ هذا الأخير تحرَّك برشاقة، وهو يسقط على يديه اللَّتين انتصبتا على الأرض تستندان عليها، ثم وثب للأمام ككرة مطاطية، وهو ينقضُّ على أحمد بشراسة. لكن أحمد لم يكن سهلًا. رواغَ وناورَ، ثم ضربَ القاتل في

الجدار بقوة، لكن الأخيرَ بدا أنه لم يتأثّر أصلًا، بل راح يكيل اللكماتِ، وهنا دوّى صوتٌ مألوفٌ:

- ماذا يحدث بالضبط؟.

التفت إليه القاتل وهو يحمل سكينه الماضية، ممّا جعل بلال يقول مندهشًا:

- ماذا تفعل يا سيد.....

قبل أن ينطق الاسمَ هوى القاتل على صدر بلال بسكّينه، والتي غاصَت حتى مقبضها في صدر بلال، والذي أطلق شهقةً عاليةً، ثمّ سقط على الأرض مُضرّجًا بدمائه! شهق بلال مرة أخرى، ثم شهق شهقته الأخيرة وانتهى الأمر. وقف أحمد بغضبٍ، لكنّ حبلًا رفيعًا التف حول رقبته، والقاتل يضغط بحِرَفيّةٍ على جانبَي عنقه، بحيث راح الظلام يصبُّ مادّته السوداء في عينَي أحمد، الذي قاوم بشراسة، ثم دفع القاتل بيديه، ودارت بينهما معركة شرسة مجنونة، تحطّمت فيها العديدُ من الأرائك والمقاعد، بسبب ضرب القاتل لأحمد فيها، قبل أن يفترش هذا الأخير جسمَه على الأرض في سكون، وقد فقدَ وعيه، وسالت الدماء من جسده!

***

(١٣)

دخل نادر حجرته، وتأمّل تفاصيلَها التي تشي بثراءٍ هائلٍ وذوقٍ سليمٍ، وقال بحسد:

- يا لك من وغدٍ محظوظٍ يا طلال!.

ثم تذكّر ثورة أوار واتّهامها لطلال بالخيانة، فقال:

- حتى الأغنياء لهم مشاكلهم الخاصة!.

خلع ثيابه وغيّرها بأخرى، ثم خُيّل إليه أنه يسمع شهقةً ما وهو راقد على فراشه. بدا التوتر على وجهه. هل حدث شيءٌ بالقرب منه؟ ظلّ منكفئًا على فراشه مُعلّقًا بصره بالباب بتوتر حقيقي، جعل جسده يرتجف، وقد راح وجه شخصيّته الساخر اللامبالي يتلاشى ببطء، ويحل مكانه الوجه القلق. مدّ يديه إلى أسفل فراشه، وأخرج حقيبةً صغيرةً كان دخل بها الفيلا، وقد فُتّشت بطبيعة الحال، ولم يجد فيها أمن الفيلا سوى بعض الثياب الداخلية، لكن الحقيبة الآن ملآنة بالتُحف الصغيرة المُتناثرة هنا وهناك وتساوي ثروةً حقيقية لو قام ببيعها. قال لنفسه: إن ظافرًا وغدٌ، وأمواله لا حصر لها، ولا بأس أن يأخذ منها ما يكفيه. سمع عدة طرقاتٍ على الباب، ففتحه وحدّق إلى الواقف أمامه في دهشة ثم قال:

- ماذا هل تشعر بالملل؟.

قال طلال وهو يدخل دافعًا إياه عن طريقه:

- لقد تأثّرتُ أيما تأثّر بقصّتك يا صديقي.

- هل صرنا صديقَين الآن؟.

تحرك طلال بسرعة وأخرج خنجرًا ملوّثًا بالدم من جيبه وشقّ رقبة نادر بسرعة رهيبة وقال:

- بالطبع!.

وضع نادر يديه على حلقه والدم يتدفق من حلقه، وهو يخور كالثور:

- لكن لماذا؟.

هز طلال رأسه بلا مبالاة وقال بشماتة:

- لن تعرف أبدًا.

وسقط نادر وهو يرتعش بقوة، وبدأ يُحرّك يديه تحت جسده بطريقة عجيبة، ثم همد جسده رويدًا رويدًا.

***

كان نعيم في حجرته حين سمع دقاتٍ على الباب. فتحه فإذا طلال واقف، وهو يمسك بحبل رفيع وهو يهتف:

- الدور عليك أيها البدين.

تحرّك نعيم بسرعة، لكنّه لم يجد وقتًا، إذ التف الحبل الرفيع حول رقبته، وضغط طلال عليه بقوة هائلة، قبل أن يلفظ أنفاسه، وهو يجحظ بعينَيه، وكأنه لا يصدق ما حدث!

لكنّه حدث!

كان عقلها مثل خلية النحل لا يكفُّ عن الطنين، ولم تكفَّ عن الحركة والثرثرة والبكاء والضحك، الحق أن أوار كانت على حافَّة الانهيار! راقبها خالد بعينَين خاويتَين، بينما لم تستطع فدوى التماسك فانهارت قبل أمها!

ليلةٌ واحدةٌ تحدث فيها كل هذه الأحداث المُتوالية!

دقَّات على الباب ففتحت الباب بحذر، وهناك وجدته ينظر إليها. حين رأته أدركت أوار أن هذا ليس طلالًا، أو أنه طلال المُختبئ في العتمة، والذي ربما كانت الحادثة التي تعرَّض لها هي السبب فيما يمرُّ به! هل حدث له ارتجاجٌ، حتى ينمو ذلك الخبث الماكر في عينَيه، الخبث الميّال للأذى؟ عهدها به أنه حالمٌ رقيقٌ على الرغم أنه كسر قلبها مرارًا. دفع الباب بغلظة وقال:

- ألن تتركيني أدخل يا زوجتي العزيزة؟.

وضعت أوار قدمها خلف الباب وقالت بشراسةٍ:

- أنت لست زوجي.

دفع الباب بقوة، فأزاح قدمَها حتى إنَّها كادت تسقط، لولا أنها تشبَّثت بقائم السرير، أما هو فقد قال بلا مبالاة:

- يا لكِ من جاحدةٍ! أهكذا تتنكَّرين لزوجك؟.

ثم تحرك بسرعة بالغة وصفعها بغضبٍ ثائرٍ بدا واضحًا على وجهه، حتى إن جسدها قد طار على الفراش واستقرَّ هامدًا عند ركن الحجرة!

انفجرت فدوى في البكاء وهي تقول بضراعة:

- أبي ماذا تفعل بأمي؟ اتركها! أرجوك!.

أمسكها طلال من شعرها الطويل وجذبها جذبة واحدةً، فارتطم جسد الفتاة النحيل بالجدار! جنّ جنون خالد وهو يقفز على ظهر أبيه، ويخمش ظهره بأظافره الطويلة، وهو يصرخ:

- بلال! بلال! النجدة! النجدة!.

قال طلال بشماتة:

- لن ينقذكم مني أحد، فقد صارت الفيلا ملكي، أفعل فيها ما أريد.

دوى صوت أوار الصارم:

- أنت مُخطئ.

ورفعت بندقية قديمة، ووضعت فيها الرصاص بمهارةٍ وسرعةٍ، وصوّبت:

- رصاصةٌ واحدةٌ كافيةٌ لتدمير مخك، هذا لو كان لديك مخ!.

ضيق طلال عينَيه:

- أراهن أنكِ لا تقدرين على فعلها.

صوبت أوار ناحية نقطةٍ مُعينةٍ، وضغطت الزناد وقالت:

- تخسر الرهان!.

وانطلقت رصاصة من فوّهة البندقية، واخترقت كتف طلال الذي بدا أنه قد فوجئ بتلك الخطوة غير المُتوقعة، فهرع هاربًا والدم ينزف منه على ثيابه! ثم انهارَت باكيةً وهي تحتضن ولديها. بعد

قليل ظهر أحدهم على الباب:

- هل أنتم بخير؟ لقد كنتم تصرخون، أليس كذلك؟.

صرخت أوار:

- أين كنت يا حضرة الضابط؟.

- كنت أواجه الموت يا سيدتي على يد ذلك المخبول طلال!.

اندفعت فدوى:

- لقد كان هنا، وحاول مهاجمتنا، لكن أمي أصابته برصاصة في كتفه.

نظر أحمد إليها مستفهمًا، فأكّدت كلام ابنتها بهزة من رأسها.

- أعطني البندقية من فضلك. على الأقل يوجد سلاح لمواجهة ذلك القاتل. أعتذر إليك يا سيدتي. لقد كنتِ على حق بخصوصه، وكنت أعمى بخصوصه.

قال خالد بمقت:

- إنه وحش! وحش!.

أخذ منها البندقية، وقال آمرًا:

- أغلقي الباب خلفي، ولا تفتحوا لأي أحد مهما كان.

- فليكن.

وانطلق أحمد ليطارد طلالًا.

***

... وكان طلال هناك في حجرة مكتب ظافر يرمق الجثة الموضوعة على الكرسي في ركن الحجرة، وينظر إلى الصورة المُعلّقة على الجدار. يتذكر كلام ظافر:

لهذا قمتُ بعمل لوحة لصورة عفوية التقطناها على الشاطئ، صورة تمثل أغلى وأثمن لحظة لنا معًا. هذه اللحظات الثمينة، نخبئ خلفها حقيقتَنا، وأكثرَ أسرارنا حلكة، لأنها في الواقع هي الوحيدة القادرةُ على تحملها.

تمتم طلال:

- هل من الممكن أن.....؟.

وحرك مقعدًا آخر واعتلاه، ثم نزع اللوحة العملاقة المُعلّقة بمسمار واحد غليظ في الجدار، ووضعها على الأرض، ثم جثا على ركبتَيه، يبحث خلفها عن أي شيء يُنير له هذه العتمة. لمعَت عيناه في انتصار حين وجد تلك المُفكّرة الصغيرة، والمتميزة بخطّ ظافر الأنيق، الشبيه بآلةٍ كاتبة. قبل أن يفتحها وجد ظلًا يقتربُ منه، وإذا به أحمد، وهو يمسك بندقيةً يصوّبُها نحوه:

- لا تتحرّك من مكانك أيها الوغد؟.

قال طلال بدهشة، وهو يتأمل أحمد الذي كان بحالة سيئة بالفعل، والدماء الجافة تُلطخ ثيابَه، والذي بدا من وقفته المُترنّحة أنه يُقاوم غيبوبةً عميقةً تهاجمُ عقلَه:

- الضابط أحمد؟ ماذا تفعل؟ ولم أنت في حالة بائسة هكذا؟.

تمتم أحمد بغيظ:

- يا لك من وضيع! تقتل القتيل وتسير في جنازته! ألم تكن أنت مَنْ قتل معظم الحاضرين بدءًا من ظافر، حتى زوجتك وولداك لم يسلما من أذاك!.

انتفض طلال واقفًا:

- ماذا تقول؟ هل جُننت؟ أنا أتعدى على زوجتي السابقة وولديّ؟ هل تظنُّني وحشًا.

قال أحمد ببغض:

- لا ترتدِ ثوبَ الحَمَل، لقد هاجمتَهم وواجهَتك أوار بشجاعة، وأصابَتك برصاصة في كتفك، و.....

توقف أحمد عن التحدُّث، وهو يُحدِّق إلى كتف طلال، حيث لم يكن هناك دم، أو ثقب رصاصة حتى!

قال أحمد بتشكُّك:

- أنت غيرُ مُصاب؟.

قال طلال بضيق:

- لا بدَّ أن عقلك قد أصابه مكروه؟ هل أُصاب برصاصة، وأجلس تلك الجلسة؟.

اقترب منه أحمد وتحسَّس كتفه، بعناية وتمهُّل، بينما كتم طلال غيظَه، حتى انتهى من التأكد، ثم قال بحيرة:

- ما معنى ذلك؟.

قال طلال بعد تفكير:

- معناه أنه يوجد شخص آخرُ هنا يقوم بذلك بدلًا منّي؟.

قال أحمد بضيق وهو يترنح:

- ويُشبهك لهذه الدرجة؟.

ثم سقط أرضًا فاقدًا لوعيه. هرع إليه طلال وتأكد أنه بخير، برغم الإصابات الكثيرة في جسده. جلس على الأرض بجوار أحمد. فكر أن يعود لحجرة أوار ليطمئنّ عليها، لكنّه وجد أنه من الأفضل أن يحلّ أصل المشكلة. فتح المفكرةَ وبدأ يقرأ، ما كتبه ظافر، والذي هو من الأهمية بمكان، لدرجة أنه يخبّئُه خلفَ لوحته المفضلة!

***

(١٤)

أنا ظافر المنجد، المعترف بجرائمي، النادم عليها، وكلها تقطن خلف ذلك الجدار، الذي يقود إلى ذلك السرداب الضخم القابع تحت البيت بعشرين مترًا، وهناك يستقر الهول اللعين الذي قابلته منذ سنوات طوال، كففتُ عن عدّها. كنت قد جاوزت الثلاثين بعامَين أو أكثر، مُوظّفٌ بسيط، وحيث لا يكترث بي أحد، ولا يهتم بأمري أحد.

وُلدت لأسرة مُتوسّطةٍ هي للفقر أقرب، لكن الشرف كان ديدَنَنا، وبرغم بساطة أحوالنا المادية، لكننا كنا نحوز على قدر هائل من الاحترام، وكان هذا كافٍ لأبي، لكنه لم يكن كافيًا لي. تجادلْنا كثيرًا حول هذه النقطة، أخبرَني بأن المال ليس كل شيء، وأخبرته بأن المالَ هو كلُّ شيء. وبرغم حنقي ونقمتي، إلا أنني كنت مُجِدًّا في وظيفتي، أؤديها بكل أمانة واحترافية.

وذات يوم وجدتُ أبي جالسًا على الأرض وهو يُمسك بيده ورقة قديمة من جلدٍ سميكٍ، أقرب لشكل الخريطة.

- ما هذا يا أبي؟.

سألته، وأنا أدخل منزلنا القديم حاملًا بعض الفاكهة في كيس ورقي مُهترئٍ. قال وهو يُقلّب في الورقة تقليبَ من لم يفهم ماهيتها:

- كنّا نبني ذلك الجدار الذي يكاد يسقط حين وجدنا تلك الورقة مدسوسةً بين شِقّي لوح خشبي قديم، يكاد يتعفن!.

بدا عليّ الفضول، وأنا أناوله الفاكهة وآخذ منه الورقة السميكة. ابتسمت حين وجدته يقضم ثمرة طازجة بأسنانه التي لم يتبقَّ منها

الكثير، وهو يسعل، من مرضه المُزمن الذي ينخر في جسده. شعرت بالشفقة عليه، لِمَ لَمْ ينتظر قدومي حتى نُجدّد الجدارَ معًا؟

كانت الورقة قديمةً فعلًا، تقول بأن ثمة مكانًا فسيحًا تحت المنزل على بُعد عشرين مترًا! قلت بدهشة، وقد طفت أفكاري على السطح:

- سرداب؟!.

قال أبي وهو يُكمل مهمته في قضم الثمرة، حيث سال عصيرها على ذقنه:

- أي سرداب هذا؟.

مسحت العصير من على ذقنه بكمّ ثوبي الوحيد الذي أذهب به للعمل، وقلت:

- لا عليك يا أبي.

لكن ظلّ الأمر يشغل تفكيري، ثم صارحتُ أبي برغبتي في حفر المنزل، فثار وهاج وماج، وأخبرني بأنه منزل أجداده، وأنه لن يدنّسه بحَفرِهِ من أجل شيء ما غامضٍ في خريطة قديمة! احترمتُ رغبة أبي، حتى رحل بعد ذلك اليوم الذي تشاجرنا فيه بعام، ثم بما أني وريثه الوحيد فقد قرّرت أن أتبع فضولي، وأنا أطمح في إيجاد شيءٍ ما نفيس يعوّضني عن أيام العَوَز والحرمان. كنتُ أعمل بعد المغرِب، للفجر، أحفر بدأب، حتى مضى أسبوع من عملي المُستمر. وفي النهاية وجدتُني على بعد عشرين مترًا تحت الأرض، ولم تكن هناك نقطة ماءٍ واحدة تنبثق من الأسفل! وكان هذا عجيبًا، فكلما حفرتُ كنت أتوقّع انبثاق الماء، لكن لا شيء، ممّا يُؤكّد لي أن ثمّةَ شيءٌ

بالأسفل. ضربتُ بقدمي الأرض، فإذا رنين معدنيّ يدوّي في الفراغ. بحثتُ بيديّ بلهفة على السطح الخشن الصدئ، حتى وجدتُ حلقة معدنية في وسط غطاء الصاج المعدني، وجاهدتُ حتى تقطّعَت أنفاسي لسحبها، وفي النهاية وجدتُ سلّمًا من الصخور يقود لأسفل! استلقيتُ وقلبي يكاد يتوقّف عن النبض من الفرحة. تأكدتُ من المصباح الزيتيّ أنه لن ينطفئ مني بغتةً وأنا أنزل على درجات السلم الصخرية، ورحت أهبط بالفعل، درجةً تتلوها درجةٌ، حتى وصلت لما يُشبه قاعةً واسعة، ذات تهوية جيدة، وهذا أثار استغرابي بشدة!

إذًا توجد فتحات هنا للهواء، لكن كيف في مكان مغلق على بُعدِ عشرات الأمتار في الأسفل؟ كانت هناك أسئلةٌ كثيرةٌ تدور في ذهني: من بَنى هذا المكان؟ وكيف بناه بهذا الاتساع وتحت ذلك العمق الكبير؟

تجوّلتُ في المكان بحذرٍ بالغ، ثم توقّفتُ مبهوتًا أمامَ صندوق من الخشب القديم. هرعتُ إليه وأنا أكاد أتعثّر، ثم رفعتُ غطاءَه، ثم وقفتُ مبهورًا أمام أكداس من المجوهرات والذهب تتألّقُ تحت ضوء المصباح! عاد قلبي للخفقان بسرعة، حتى كدتُ أخشى أن ينهار من الفرحة! صحّ توقُّعي، وتحقّقتْ أمنيّتي.

- بَنُو جنسِك يحبُّون الذهب. أليس كذلك؟.

دوّى الصوتُ، فسَرَتْ قشعريرةٌ باردةٌ في جسدي، وكاد المصباح يسقط منّي، وأنا أتلفت حولي صارخًا:

- مَن يتكلّم؟.

- وهل أنا أتكلّم فعلًا؟.

ارتجفَ جسدي. كنتُ أسمع الصوت بوضوح، ثم تبيّن لي أنها ليست العربية حتى، بل أشبه بفكرة ما واضحة جلية محددة اخترقت ذهني. هتفتُ:

- من أنتَ؟.

- هذا سؤال تصعبُ إجابته أيها البشري.

تلفتُّ حولي قائلًا بتوتر:

- هل معنى ذلك أنك لستَ بشريًا؟ لستَ من عالمِنا؟.

أجابني الصوت في تلافيف عقلي:

- لستُ بشريًا؟ نعم.. لستُ من عالَمِكم؟ لا.. واكتفِ بتلك الإجابة.

لم أجد كلمة تعبّر عما يعتمل في ذهني. سألتُ بصوت عالٍ في محاولة للتغلب على سيل الأفكار الهادر بداخلي:

- ماذا تريد؟.

- بل أنت منْ يُريد، وأنا سأُحقّق ما تُريد بشرط.

- بشرط ماذا؟.

- أن تنفّذ ما أُريده.. لو فعلتَ ذلك، سيكون هذا الذهب كلُّه ملكك.

- لا بدّ أن عينيّ قد برقتا في جشع في تلك اللّحظة، ولا أستبعد أن يتفوّق وهجُها على ضوء المصباح الذي أحمله. قلت بمخزون الرغبة المُستعرة في أعماقي في تحقيق الثراء:

- موافق.

- ستنفذ أوامري بالحرف، ومُقابل ذلك سأجعلك ثريًا، ليس بالمال فحسب، بل بأشياء أخرى.

هززت رأسي:

- موافق، موافق.

- ولو لم تلتزم بما أريده؟.

- أوقِع عليّ ما تريد من عقاب.

- صمت الصوتُ ثم بدت علاماتُ الرضا في جنباته:

- فليكن.. اتّفقنا.

مددت يدي بلهفة للصندوق، وأنا أنوي أن آخذ منه حَفنةً مُحترمةً، لكن الصوتَ عاد مجددًا ليُحذّرني:

- لا تطمع في الكثير. خذ هذه الكأس الذهبية فحسب، وبِعها، ومن مالِها قم بتجديد منزلكم وحوّله لأفخم مكان يُمكن تصوُّره في بلدك.

قلتُ على الفور:

- سأحوّله لفيلا.. يوجد لدينا مُخطّط وبنّاء عظيم سوف أجلبه لتصميمها.

قال الصوت في عقلي، وإن كان بشكل أبطأ لو جاز لفكرة أن تبطئ في سريانها:

- حسنًا، افعَل ذلك، ثم أحضره إلى هنا.

قلتُ بتوتُّر:

- إلى هنا؟.

- نعم، أريد رؤية هذا النابغة، لكن بعد أن يُنجز حلقَك.

- لكن لماذا؟.

- لا تسأل.

قلتُ بخضوع:

- سأفعل إذًا.

ثم مددت يدي للكأس، وأخذتها في حضني.

- والآن انصرفْ أيها البشري.

- اسمي ظافر يا سيدي. ظافر.

- وستكون ظافرًا دومًا ما دمتَ تسمع كلامي بإمعان، وتنفذه بإتقان.

- حسنًا يا سيدي.

- انصرف يا ظافر، ولا تعد إلا بعد أن تبني الفيلا.

تردّدتُ في الانصراف:

- ماذا يا ظافر؟.

- وبماذا أخبر جيراني عن ثرائي هذا؟.

- لا تخبرهم بشيء، ودع خيالهم يصوّر لهم العديدَ من الأجوبة، لكن اطمئنّ، ستكون رحلةُ ثرائِك بطيئةً ظاهريًا، لكنها واقعية. يهمني ألا تثير الكثير من الغبار حولك.

شعرتُ بطمأنينة في أعماقي، وأنا أتجه لأعلى، ثم توقَّفت مرة أخرى.

- لا أحب المُتردّدين يا ظافر.

دوّى الصوت في أعماق أعماقي.

قلتُ:

- بمَ أناديك يا سيدي؟.

- سمِّني... سمِّني" السيد" فحسب.

- فليكن أيها السيد.. ألن تسمح لي بأن أراك؟.

- ليس بعد يا ظافر.. ليس بعد، لكن سيحدث هذا. لا تتعجّل.

ورحت أرتقي الدرجاتِ الصخريةَ لأعلى، ثم أضع الغطاء المَعدني على الصاج، ثم أُمسك بالحبال المُتدلّية، حتى وصلت لسطح الأرض، أحدق إلى الجدران حولي. غادرت المنزل القديم، وأنا أضع الكأس في قطعة قماش قديمة، وفي ذهني الصائغ الذي سأبيعها له. كان الليل قد أسدل ستائرَه، والمطر لا يكفُّ عن الهطول، والشوارع الطينية الضيقة تكاد تجعلني أتعثر فيها لأسقط، لولا حذري في السير. توقَّفتُ فجأة عند ولد في العاشرة من عمره، أسمرَ نحيلٍ، يرتدي ثيابًا مُهترئةً. قال وهو يرفع يده:

- أطعمني يا سيدي، أنا جائع.

قلت بدهشة:

- أين أبواك يا فتى؟ كيف يتركانك في طقس كهذا تتجول على

قدميك في الشوارع؟.

- ليس لديّ أحد يا سيدي، لقد ماتا.

سألته بعطف:

- ما اسمك؟.

قال بعد لحظة، وكأنه يتردد في إخباري بذلك:

- اسمي بلال يا سيدي.

***

(١٥)

كان المهندس الإسباني فرناند خوسيه رجلًا في مُقتبل الخمسينات، ترك بلده منذ سنوات بسبب حُكمِ الجنرال المُستبدّ أرانكو، واستقرّ في الكويت وطاب له المقامُ فيها. كانت له لمسة جمالية فاتنة في المنازل التي يقوم بتصميمها، حتى إن اسمه قد ذاع، وصِيتُه قد وصل للبلدان المُجاورة، حيث طُلب بالاسم، وبالمُقابل المالي الذي يريده. قابلتُه، وبعد تعارف مُقتضب قلت:

- أريدك أن تبني لي فيلا يا سنيور فرناند.

قال بعربيته المكسرة:

- فيلا دفعة واحدة؟ ستكلّفك الكثير.

- لا تقلق من حيث المال.

ورفعت يديّ عاليًا:

- المهم أن يكون بناءً فخمًا بمواصفات معينة.

قال عاقدًا حاجبَيه:

- المفترض أني من سأضع تلك المواصفات.

قلت بهدوءٍ غامضٍ:

- النصف العلوي فقط. أما النصف السفلي فيحتاج لبعض التصميمات الخاصة.

نظر إليّ بحيرةِ مَن لم يفهم كاملَ قصدي، لكنه أومأ برأسه، وهو

يقول:

- المهم أن تجهّز لي مساحةً كافية لها.

- لقد اشتريتُ معظم البيوت المجاورة، حتى يكون البناءُ مريحًا، وكذلك من أجل الحديقة التي أريد أن تطوّق الفيلا.

- حديقة أيضًا؟ في أي شيء تعمل بالضبط يا أستاذ ظافر؟.

***

كانت دهشة فرناند عظيمة، وهو يرى تصميم حجرة المكتب، وحين انتهى التصميم أعقبه البناء الذي أخذ عامًا كاملًا حتى اكتمل، وفي نهاية العام انتصبت الفيلا شامخةً تشي بثراء صاحبها -أنا-وبحسن ذوقه في نفس الوقت. كان بلال هو الصبي الأسمر الخاص بتنفيذ كل أوامري، وكان يعجبني فيه قلة كلامه، وتنفيذه لِمَا آمره به دون جدال أو محاولة للتجويد. بل هو ينفذ ما أريده لا أقلّ ولا أكثر.

وكان عليّ أن أفي بوعدي مع السيد.

سأخبره عن رحلة الثراء التي بدأت بشكل طبيعي، فقد جمعتُ بعض المال من وظيفتي، واشتريتُ به قاربًا أعطيته لصياد ماهرٍ، هو يصطاد ويبيع، والمَكاسب بالنصف. قارب يتلوه قارب، ثم صار أسطولًا من القوارب. كل هذا في الظاهر، لكن في الحقيقة كان المبلغ الضخم الذي ربحتُه من بيع الكأس الذهبية قد حلّ لي الكثيرَ من العوائق المادية التي قابلَتني.

وقف أمامي فرناند في حجرة مكتبي الجديدة. قلت له:

- سأريك شيئًا لم يره أحد من قبل يا سنيور فرناند. وأرجو أن يكون سرًا بيننا.

بدا الفضول عليه، وأنا أضغط زرًا معينًا فانزاح جدار المكتب الخالي، كاشفًا عن ممرٍّ ينتهي بمصعد، دخلناه وضغطت زرًا فبدأ يهبط لأسفل. قال:

- آه، من أجل ذلك طلبت وجود مصعد، لكن إلى أين سيذهب بنا؟.

قلت مُبتسمًا بغموض:

- ستعرف بعد قليل.

هبط بنا المصعد العشرين مترًا، ثم استقرّ في النهاية حيث يجب أن يستقرّ، حدّق فرناند في المكان المتّسع في الأسفل. قال بانبهار وهو يتحرك بحيوية في المكان:

- مذهل! كيف أخفيت عني كل هذا الجمال يا رجل؟.

قلت بتحفُّظٍ:

- ثمّةَ من يود رؤيتك.

تلفّت فرناند حوله:

- مَن؟ شخصٌ يُقيم هنا؟! عجبًا!.

- مرحبًا بكما.

دوّى صوت المخلوق الغامض الذي يُدعى السيد. وبدا الارتباك على وجه فرناند وهو يواصل تلفُّته حوله، وإن كان بعصبية مضطربة في تلك المرة.

- مَن؟ مَن؟ أظهز نفسك.

- لكي أُظهر نفسي فعليك أن تُفني نفسك أيها البشري.

والحقيقة أني لم أُدرك تفاصيلَ الهواني التي تلت تلك الجملة التي دوّت في عقلَينا معًا، فبغتة سادت عتمةٌ للحظة، ثم عاد ضوء المصباح الزيتي ينير المكان، ورأيت فرناند مُتجمِّدًا في وقفته، يفغر فاه، وقد كانت عيناه متسعتين بشكل مربع، ثم انفجرا!

نعم، انفجر جسدُه مثل بالون منتفخ بالدم، بل والتصقت أجزاءٌ من أشلائه برأسي حتى إني تراجعتُ للخلف برعب، وأنا أسقط أرضًا من شدة الفزع!

صرختُ:

- ماذا حدث يا سيدي؟.

قال السيد بصوت غاضب في ردهات عقلي:

- لم يقدز جسدُه الفاني على احتوائي!.

- لقد مات يا سيدي! مات! ماذا أقول لمن سيسألني عنه؟.

- لا تتحامق.. معك الكثير من الأموال الطائلة. لفِّق قصةَ عودته لبلده وستجد الكثيرين ممن سيصدقونها. لا تشغل بالي بهذه التفاهات، ودعني أفكر في طريقة لكيلا ينفجر الجسدُ الذي أحتله مستقبلًا.

- لا أفهم يا سيدي. لماذا تريدُ هذا؟ وهل مثلك يحتاج لجسد؟.

- لا تسأل عن أشياء لن أمنحك أجوبتها، على الأقل في الوقت

الحالي.

ساد صمت غير مُحبّبٍ، وأنا أقول لنفسي أني بعت نفسي للشيطان!

قال الصوت بلهجةٍ آمرةٍ:

- عليك أولًا أن تتزوّج وتعيش حياتك المُقبلة.

- لو أنجبتُ أولادًا عِدني ألا يصبَهم سوءٌ يا سيدي.

- لا تخشَ شيئًا، ما دمتَ تُنفّذ أوامري، وأنت على قيد الحياة فلن أمسّهم بسوء.

وساد صمتٌ للحظة قال:

- سأجعل جسدك قويًا.. اقترابُك ونزولُك المُستمرُ للسرداب سيجعلُك قريبًا، وعندما تكون قريبًا منّي ستبطئ أجهزةُ جسمك في عملها، ولن تخترمك الشيخوخة مبكرًا.

شعرتُ بسعادة بالغة مما سمعتُ. وبالفعل تزوجتُ امرأةً طيبة، أنجبَت لي ابنتي الوحيدة أوار، والتي كانت تشبه قطرة الندى في صباح جميل. ثم ماتت زوجتي بعد أن صارت أوار فتاةً يافعة، ولَكَم حزنتُ على رحيلها. كنتُ أودُ أن ترى أوار في فستان الزفاف الأبيض. لقد بكيتُ كثيرًا وأنا أخاطب السيد لكي يفعل شيئًا، لكنه لم يفعل. لقد صرت شهيرًا بتلك الجلسة الأسبوعية، حيث يحضر سبعة أشخاص فقط، وكل واحد منهم يحكي أكثر المواقف صعوبة وبشاعة وعاطفة. قال السيد بأنه يستشعر أفضلَ جسد من هذه التجارب التي تُحكى على مَسامعه.

- وهل تسمعُها بنفسك يا سيدي؟.

قال الصوت بنبرة حملت قدرًا هائلًا من الغموض:

- لا تشغل بالك بذلك. المهمّ أن يحكوا ويتكلموا.

ثم قست لهجته، وهو يخبرني بأني عاطفيٌ أكثر من اللازم، وأخبرني أني من المفترض ألا أكون كذلك. عليّ أن أكون قاسيًا في نظراتي، صارمًا في خطواتي، على الأقل ظاهريًا. هذا سيُبعد عنّي الفضوليّين، وستغدو مُحاولات مُصادقتي باعتباري الثري الأكبر في البلد صعبةً للغاية. ونفّذت توجيهاتِه بدقّة.. والغريب أن هذا قد منحني مَهابة في قلوب الناس، وسرّني ذلك.

منذ أن قمت بعمل تلك الجلسة، استطاع السيد أن يخترق أكثرَ من جسد، لكن لم يكن أيٌ منها مُناسبًا، لكن العجيب أن أحدًا منها لم ينفجر! لكني لاحظتُ أن ضيوفي الذين يأتون مرة واحدة فحسب، يتغيّرون! يصيرون أكثر شرودًا وصمتًا. وحين سألته، قال لي:

- تجربةُ اختراقي لأجسادهم صعبة. الأمر أشبهُ بحاجز رقيق بارد ينغلقُ على ذواتهم!.

كان تشبيهًا غريبًا. طبعًا تقدّم لي الكثيرون ممن يريدون خطبةَ أوار، والتي حرصتُ أن تبتعد عن عالَمي البشع هذا. وكنت أرفض وأرفض، ولم تكن أوار تهتمُ كثيرًا. حتى ظهر ذلك المَدعوُ "طلال!".

***

(١٦)

- وماذا يعمل طلال هذا؟.

قالت أوار بحياء:

- في شيء يُدعى الإدارة المالية.

- مُوظّف بسيط إذًا.

بدت حُمرة الخجل على خدّيها.. إنها تحبّه.. إنه ليس مثل السابقِين، حيث لم تكترث برفضِي لهم. ذلك الوافد الجديدُ على مَملكة قلبها كيف أتخلّص منه؟ كيف أقول لأوار أني أفعل ذلك من أجلها؟ ماذا لو اكتشفَ زوجُها المُستقبليّ حقيقةَ ما أفعله، وخاصّةً أن من سيتزوّجها سأشترط عليه أن يُقيم معي في الفيلا؟

قابلتُ طلال هذا، وبدا واضحًا أنه واقع في غرامها. استخدمت كل مَهاراتي في التسخيف منه، والتقليل من شأنه، لكن لوحَ الثلج كان مُصرًّا على أوار، والحقُّ أن ذلك أثار إعجابي، لكني لم أبُح بذلك. تمّ الزواج، وكانت ثمرته أجمل مخلوقَين في العالم: فدوى وخالد.

لقد أضاءا دنياي، ومنحاني سعادة لا تُقدّر بكنوز العالَم كلّه. لكنّ كل شيء قد تغيّر بعد مرور عشر سنوات تقريبًا. حين بدأ السيد في مُتابعة طلال باهتمام. لقد تعوّدتُ على النزول إليه كثيرًا، ولقد رحتُ أحكي له كلّ صغيرة وكبيرة تحدث في حياة ابنتي العائلية، وكان هذا خطأً لا يُغتفَر. لمحتُ بين سطور كلامه المُتردّد في عقلي أنّه مُهتمٌ بطلال بشكلٍ خاصّ، وأنه ربما يكون ضحيّته المُقبلة! شعرتُ بالرعب، صحيح أني أمقت استهتارَه، وكسرَه لقلب ابنتي

بسبب حماقاته، لكن أن أوافقَ على أن يكون هو وعاء السيد القادم؟ مُستحيل! وندمتُ لأني أخذت عهدًا بألا يمسّ زوجتي أو أولادي، ولم أضف أزواج أو زوجات أولادي! لقد شعرتُ بالخطر البالغ، وصدق حدسي، فقد طلب مني أن أُقدّم الدعوة بنفسي إلى طلال من أجل الحضور للقاء الذي لم يحضره من قبل!

أنا حائرٌ.. أكره ما فعلتُه وما سأفعلُه.. هذه الرسالة لك يا طلال.. أرجو أن تجد مخرجًا من هذه الورطة التي كنتُ أنا سببًا فيها. طلبي الوحيد منك لو حدث لي شيءٌ أن تُحافظ على أسرتي، وأنا تفديهم بحياتك لو لزم الأمر، فهم أسرتُك أيضًا. سأترك لك إشاراتٍ لكي تفهم أن المُفكِّرةَ موجودةٌ خلفَ لوحتي المُفضّلة.. أعتمدُ على ذكائك هنا، والذي أرجو ألا يخذلَني.

***

(١٧)

انتهى طلال من قراءة مُفكرة ظافر، والتي كانت مُوجّهةً إليه هو بالذات. إذًا فذلك هو الجانب الخفيّ في شخصيّة حَمِيه السابق، وهو على خطورة ما فعله من خطايا وحشية يندى لها الجبين؛ يظلُّ له جانبُه الإنسانيّ المُعتبَر. لقد كان يحافظ على أسرته، وكان رافضًا لأن يكون وعاءً لذلك الوحش المُسمّى بالسيد، من أجل أن يُحافظ على ابنته من وحشٍ يتخفّى في إهاب زوجها. بشكل ما يحترمه على ذلك، لكن يبدو أنه قد تجاوز الخطّ الأحمر، مما جعلَه يقوم بقتله، لكن يظلُّ السؤال هنا: مَن فعلَها؟ قال لنفسه بأنّ الوحشَ مَن أمرَ بذلك، لكن من الشخص الذي نفّذ؟

نظر إلى الجدار الذي صار عاريًا، وقد استقرّت لوحةُ ظافر العملاقة على الأرض. بحث طلال بيده عن ذلك المسمار الخفي، فوجدَه أخيرًا في نفس الثقب العُلوي الذي كانت تُعلّق في مِسمارِه اللوحة!

ضغطَه، فإذا الجدار يدور حول محوره كاشفًا حُجرةً كبيرة تقود للمصعد. أخذ نفسًا عميقًا وهو يخطو محاولًا التغلُّب على خوفه. في الحقيقة هو لا يعرف ماذا يفعل، لكنه سيترك الظروفَ هي من تحدد المسار الذي يجب أن يتبعه. المهم أن يجد طريقةً لإنقاذ فدوى وخالد وأمّهما، والذين يستلقون في تلك اللحظة بلا حراك في القاعة الكبرى بالفيلا. كان عليه أن يجدَ وسيلةَ إنقاذٍ قبل أن تُشرق الشمس، وقبل أن تُكتشف الجُثث الموجودةُ فيها.

وصل أخيرًا للأعماق، ثم توقّف في مُنتصف القاعة الكبيرة تحت الأرض. لمح بطرف عينه الصندوقَ الذي صار خاليًا بالكاد. طبيعي أن

يخلو مما فيه، فقد احتاج ظافر لمصاريف هائلة على مدى سنوات طويلة، لكن الأخيرَ كان له من الذكاء والحصافة وفنّ إدارة المال ما جعله يُحسّنُ تلك الثروة، ويحولها لمليارات الدولارات!

"أين أنت أيها السيد؟ لقد أتيتُ لك بنفسي لكي تجعلني وعاءَك".

قال طلال لنفسه بأنه أحمق ليقول هذا الكلام! ساد صمت، حتى شكّ طلال للحظة أنه لا وجود له أصلًا! لكن فجأةً دوّى الصوت في عقله:

- مرحبًا بك في مَملكتي.

انعقد حاجبا طلال. تلفت حولَه بتوتُّرٍ تساءل:

- أليس من حقي رؤية من سيحتل جسدي؟.

- بموافقتك أيها البشري، بموافقتك.

كانت ابتسامة طلال فاترةً وهو يقول:

- بالطبع بموافقتي.

- هل يمكنك أن تخمّن من أنا؟ أريد أن أطمئنّ أنّ جسدي لن يستقرّ للأبد في جسد بشريٍّ غبي على الأقل.

قال طلال بهدوء:

- أنتَ بلال بالطبع.

وفي اللحظة التالية برز بلال من ركن القاعة!

***

تأمّله بلال بدهشةٍ صامتةٍ، ثم قال:

- كيف عرفت؟.

قال طلال:

- كان من الغريب أن يجد ظافر ولدًا صغيرًا تائهًا فور خروجه من تحت الأرض. كان اعتقادي أنك تابع وفيٌ للسيد، لكن خطر لي خاطرٌ آخر: ماذا لو كنت أنت السيد نفسَه؟!.

صفّق بلال مُستحسنًا:

- عظيم.. لا ينقصك الذكاء بعد كل شيء.

ثم أردف وهو يبتسم بخبثٍ بدا غريبًا لشخصيته المعهودة الشديدة الوقار:

- لكنّك لم تُجب عن سؤالي مَن أنا؟.

بدت الحيرة على وجه طلال. قال بلال وهو يتأمل المكان بشرودٍ حوله:

- لا أقصد ذلك الشكل البشري الذي أتخذه بالطبع، لكن أقصد ماهيّتي الحقيقية.

لزم طلال الصمت. المخلوقُ في سبيله لكشف النقاب عن أهم سؤال يمكن معرفةُ إجابته. رفع بلال رأسه، شادًا جسده لأعلى وكأنه جنرال يشرف على معركة مُقبلةٍ:

- من يقف أمامَك هو أرقى صورة للوعي الذكي الذي لا جسدَ له.

خُيّلَ لطلال أنه لم يسمع جيدًا، فتساءَل:

- ماذا؟!.

ابتسم بلال، وكأنه يعرف أن الإجابةَ صعبةٌ. قال وهو يتلفتُ حوله:

- سأشرح لك بشكل عملي.

وانحنى وأمسك بدودة رمادية صغيرة تسير على الأرض:

- هل ترى هذه الدودة؟.

أومأ طلال برأسه. تابع بلال:

- منذ آلاف السنين وهذا المكان يعجُّ بجحافل هائلة من الدود. ولأنّي مجرّدُ وعيٍ بلا جسد فقد رحتُ أمتزجُ بعقول الدود البسيطة.. لا، فلنقل وعيها المحدود، ومن خلال تداخل وعيي الهائل مع وعيها صرتُ أنا وهي وحدةً واحدةً!.

وبغتةً انفجر جسدُ بلال، متحوّلًا لآلاف الديدان التي راحت تسرح هنا وهناك مُتسلّقةً الجدران، وزاحفةً على الأرض المُتربّة! انعقد لسان طلال من فرط المُفاجأة! هل كان بلال الذي يجولُ في الفيلا هنا وهناك، عبارة عن كتلة مُنمّقةٍ وواضحة له مكوّنةٍ في الأصل من الدود؟

ثم حدث فجأة أن وثبَت أعدادُ الدود المَهولة إلى بعضها البعض مجددًا، وكأن مغناطيسًا خفيًا يجذبها إليه، وكانت النتيجة أن تجمّع بلال مجددًا واقفًا برشاقته وهو يقول:

- أريئكَ بشكل عمليٍّ حتى تفهمَني سريعًا.

قال طلال بصوت مبحوح:

- أرى أنك قتلتَ ظافرًا من أجل ذلك.

بدا بلال صارمًا:

- لقد اتفقنا على ذلك، وهو بنفسه قال بأنه لو لم يلتزم بأوامري فعليّ أن أوقعَ عقابي عليه أيًا كانت ماهيّته.

تذكر طلال هذ المقطع في مُفكرة ظافر الصغيرة، على الأقل المَخلوق لا يكذب. قال طلال بضيق:

- أكان عليك أن تضرب رأسه في الجدار حتى يسيل مُخُه.

- لقد أغضبَني.. استدعاني لمكتبه، بصفتي خادمه المُخلص، وقال لي بأنه يشعر بتأنيب الضمير، وأنه ارتكب جريمةً شنيعةً، وصارحني بما وجدَه تحت الأرض، وأنه يريد الخروجَ من الاتفاق الذي أبرمناه منذ سنواتٍ طوال، وفجأةً أظهرتْ له حقيقتي، فبدا عليه الذعرُ وتوقف جسدُه من الرعب، لكنّي كنتُ غاضبًا بشدة، لذا فقد أمسكتُ بجسده، وضربتُ به الجدارَ بقوة، حتى تهشّم رأسُه! كما ترى فحتى وهو يخون المِيثاق أنا أحققُ أمانيه!.

وأطلق بلال ضحكة عالية تردّد صداها بين ربوع المكان. سأله طلال:

- لكن لماذا تريد أن تحتلّ أجساد البشر؟.

- هذا الجسد الذي تراه -على إمكانيّاته- محدود، وفرصة تجسدي من خلال أعداد الدود الهائلة هذه ضئيلة بطبيعة الحال، ومن حُسن الحظ أن وظيفةَ مدبّر المنزل تستدعي أن أختفيَ من أمام أعين ظافر وعائلته كثيرًا. لكنّي أريد جسدًا من لحمٍ ودمٍ، جسدًا يحتوي

وعيي، ومن خلاله أُحقّق أحلامي في العيش ورؤية العالَم و"تذوُّقه.

- كان أمامَك ظافر، فلِمَ لَم تقم بذلك معه؟.

- لقد ارتكبتُ هذه الحماقةَ بالفعل منذ 300 سنة، حيث كان هذا المنزل غيرَ موجود، بل هو حافّةُ تلٍّ صغير ينتهي بهاوية ضيقة. سقط رجل بسيطٌ غافلٌ واحتللتُ جسدَه فانفجر. لذا كان عليّ أن أتعلّم من الدرس وأتّخذ لي تابعًا من البشر.

قال طلال ببرود:

- ألا تخاف من أن ينفجر جسدي أيضًا، وتضيع عليك هذه الفرصة؟.

مطّ بلال شفتيه:

- سيكون من المؤسف حدوث ذلك، لكن لا أعتقد أن ذلك سيحدث الآن.

- لماذا؟.

- لأنك لن تنفجر.

- آه، تريد موافقتي على أن تحتل جسدي. أليس كذلك؟.

قال بلال مُستحسنًا:

- أراك تجمّع أجزاءَ الصورة العشوائية بطريقة مُثيرة للإعجاب. أنا بعيد النظر حقًّا في اختيارك.

- وما الذي يجعلك تظن أنّني سأوافق؟.

- ليس أمامك خيار آخر. لقد أحكمتُ الحصار حولك. أنت الآن قاتل، وهناك شهود على ذلك.

- لقد كنتَ تتحكم فيّ، حتى فعلتُ تلك الأفاعيل البشعة.

حكّ بلال ذقنه، ثم قال مُبتسمًا:

- في الحقيقة أنت لم تفعل أي شيء على الإطلاق، وبالفعل أنت بريء من تلك التهم!.

***

(١٨)

قلث ببطء:

- هكذا؟.

أومأ بلال أو السيد في حقيقته. سألته:

- كيف؟.

- من خلال الدود ذاته. الدود أسيطر عليه بشكل كامل، وهو يلتصق بمراكز معينة في المخ، بحيث يتلقى أوامر مني وينفّذها. هل تعرف كيف يعمل المخ؟ يقوم أحدهم بغرس سكين في جسد آخر، فترسل إشارات للمخ لتنبئه بوجود ذلك الجرح، وهنا يشعر الجريح بالألم. نفس الحال هنا. دودة تسيطر على مخ فريد المسكين، وبسبب ضغط الدودة على مراكز التخيّل يُخيّل إليه أنه يراك وأنت تنقض عليه، وتُدير عنقَه عكسَ عقارب الساعة! نفس الحال بالنسبة للبقية، لكن هذه المرة هم أحياء، ويمكنهم ببساطة أن يشهدوا أنهم رأوك تهاجمهم.

تمتم طلال بغيظ:

- وأنا الذي كنتُ أظن أنني فعلتُ كل هذه الأشياء بالفعل.

- لا لم تفعلها، لكن هذا لا يعني أنه لا توجد دودةٌ بداخلك!.

وثب طلال للخلف مرتعبًا:

- ماذا؟ كيف أيها الوغد؟.

هز بلال كتفيه:

- أنسيت أنني استقبلتك بالمشروبات المنعشة فور وصولك. في قاع أحد الكؤوس كانت تنتظرك دودةٌ صغيرة لطيفة، ولأن مذاق العصير شهيٌ فقد شربتَ حتى الثُمالةَ.

تحسس طلال جسده:

- دودة هنا؟ وما الداعي إليها ما دمتَ واثقًا بأني سأوافق على احتلالك لجسدي، وأنك واثق أنه لن ينفجر؟.

- من أجل أن تسمع ذلك الهمس، وترى ذلك الظلّ على الجدار، وتشعرَ بالخوف على عائلتك، وتعرضهم للخطر.

- لكن فدوى قالت لي بأنها تسمع همسًا مماثلًا؟.

- لم يحدث ذلك. بل خُيِّلَ إليك أنها قالت ذلك.

- لا تقل لي أن أجسادَهم تحوي ذلك الدود؟.

صمت بلال ثم قال:

- حين أبرمتُ اتفاقي مع ظافر كانت أسرتُه مستثناةً من ذلك.

بدا الارتياح على وجه طلال، لكن سرعان ما تلاشى سريعًا وبلال يُكمل ساخرًا:

- لكن بعد موته أُلغي الاتفاق ضمنيًا برحيله؛ ولذا فقد تأكدتُ من أن تستقرّ في جسد كل واحد من عائلته دودةٌ صغيرة لطيفة بالقرب من قشرة مخه.

صرخ طلال:

- أيها الحقير!.

ابتسم بلال وأشار للمصعد الذي كان يهبط مجددًا، وانفتح بابه وخرج منه خالد وفدوى وأمهما، وهم يحملون وجوهًا جامدة.

هرع إليهم طلال هاتفًا:

- هل أنتم بخير؟.

لم يلتفت إليه أحد، بل واصلوا السير حتى وقفوا خلف بلال الذي قال وهو يتأمل أصابعه:

- إنهم أتباعي الآن يا عزيزي، وعليك أن تتخذ قرارًا سريعًا بالموافقة.

قال طلال بعناد:

- ولو لم أفعل؟.

رمقه بلال ببرود، ثم نظر لخالد وفدوى وأوار، وفجأة صرخت فدوى، ونظرت للفراغ أمامها وبدا عليها الفزع:

- أبي، ماذا تفعل؟ أبي، لا تفعل أنا ابنتك!.

فهم طلال على الفور ما الذي يفعله بلال، إنه يجعل فدوى تخوض تجربةً عنيفةً قاسيةً كافيةً لتدمير نفسيّتها لما تبقى من عمرها! وثب طلال نحو بلال، الذي تفرق في لحظة، ثم تكوّن في مكان آخر في لمح البصر، وأوار تصرخ:

- طلال أيها الوغد، ماذا تفعل بابنتي؟.

وخالد يضرب الهواء بقبضتيه صارخًا:

- اترك أختي أيها اللعين!.

صرخ طلال:

- كفى! أنا موافق!.

بدت ابتسامةُ ظَفَرٍ على وجه بلال، والذي قال وهو يضم يديه في أناقة:

- لا تظنّنّ أنك خاسر. باحتلالي لجسدك سوف يتضاعف مستوى ذكائك إلى حد غير متوقع. سأجعلك غنيًا، وسأخرجك من تلك التهم، وطبعًا سأجعلك تنعم بدفء العائلة مجدّدًا.

وأشار إلى نفسه:

- سأنعم أنا بها من خلال جسدك.

تألقت ومضة ضوء في ذهن طلال وهو يقول مندهشًا:

- هل تفعل كل ذلك من أجل هذا الهدف؟.

قال بلال ببطء:

- من أجل ماذا؟ أفصح.

- من أجل أن تشعر بدفء العائلة.

وضرب طلال جبينه:

- يا لي من أحمق! ليس الأمر متعلقًا بأن يحتوي جسد بشري وعيَك، بل أنت تفعل ذلك من أجل هدف أكبر: أن تشعر بدفء العائلة المحروم منها! كائن مثلك ظلّ هنا لآلاف السنين مجرد وعي متطور

شديد الذكاء، لكن بلا جسد يشعر بدفء الحضن وهو يحتضن فتاةً يحبها وتحبه، وابن وابنة يحبهما ويحبانه! هذه مأساتك إذًا، والتي ارتكبت من أجلها كلّ هذه الجرائم؟!.

بدت الشراسة على وجه بلال هو يلتفت إلى خالد وفدوى وأمهما، فعادوا يتحركون مُجددًا، وهم يقاتلونه بشراسة في عقولهم!

صرخ طلال:

- توقف أيها الوغد، وخذ جسدي، لكن.....

تجمدت فدوى وخالد وأوار، وبلال يوليه اهتمامه:

- ماذا؟.

- حين تحتل جسدي، هل سيكون لي وجود؟.

- في البداية فقط، لكن بعدها سيتلاشى وعيُك.

- تقصد أني سأموت؟.

قال بلال ببرود:

- هذا صحيح.

- إذًا حتى تكون الصفقةُ رابحةً لي ولك، فلنعقد اتفاقًا جديدًا.

قال بلال بحذر:

- وما هو؟.

- حين تحتل جسدي ستترك أوار وفدوى وخالد، ستتركهم وترحل بعيدًا لتكوّن عائلةً جديدة بذكريات جديدة.

تأمله بلال:

- أنت تطلب مني شيئًا صعبًا.

- وأنا أُقدم لك جسدي ليكون وعاءَك للأبد، لو جاز التعبير، فلا بدّ أنّ الموتَ سيخترمك يومًا.

ضحك بلال:

- أنا مخلوق معمّر يا صديقي، مخلوقٌ مُتوائمٌ مع هذه الطبيعة، وهذا العالَم بكل دقائقه وتفاصيله. قد أبدو نشازًا لك، لكنّي في الواقع من قلب هذا العالَم، وصدقني سأعيش أطول من حياة النجوم ذاتها! المفروض أن تشعر بالفخر. جسدُك سيعيش معي لفترة هائلة جدًا جدًا.

- فلْتذهب للجحيم. لا يَعنِيني. هل أنتَ مُوافق على اتفاقنا؟.

صمت بلال ثم قال بحزم:

- مُوافق. أعدك أنني سأتركهم وأرحل بعيدًا، وأني سأبدأ حياةً جديدةً في مكانٍ جديدٍ، وأنّهم لن يروني مُجددًا.

قال طلال بارتياح:

- الآن يُمكنك أن تأخذ جسدي.

تأمله بلال بحيرة:

- لهذه الدرجة تحبُهم، ومُستعدٌ للتضحية من أجلهم، بالرغم من أنهم يرفضونك؟.

قال طلال بخشونة:

- لا تضيّع الوقت في الكلام الفارغ، وابدأ في عملك.

ألقى عليه بلال نظرةً أخيرة، ثم تفرّق الدود مُتناثرًا في الأنحاء، وفي تلك اللحظة أمكن لطلال أن يرى ما يُشبه الكيان الشفاف، له حدودٌ لكن ليست له ملامح في قلب تمركُز الدود، عند موضع صدر بلال! وانطلق نحوه ذلك الكيان، واخترق جسده بقوة، ودوّت صرخة هائلة في أنحاء المكان.

***

كان طلال يشعر بألمٍ رهيبٍ للحظاتٍ، ثمّ شعر بذلك الوعي يزيح وعيه جانبًا ويدفعه في منطقة مُظلمةٍ، ويتولّى هو القيادة. من خلال عينَيه اللّتين صارتا عينَي السيد، أمكنه أن يرى كرةً صغيرةً ذات لون أحمرَ داكنٍ مُرتكزة على قاعدة خشبية، بينما توجد قاعدة أخرى خشبية لكن خالية! ولأنّ ذكرياته امتزجت مع ذكريات الوعي، دون أن يرى الوعيُ نفسُه ذكرياتِه، وكأنه مُترفّع عن رؤيتِها، فقد رأى طلال مشهدًا سابقًا لأوار وهي تهبط بحذر، وتتفحص المكان بفضول، ثم تأخذ إحدى الكرتَين وتنطلق بها مُبتعدة. سأل طلال في العتمة العجيبة:

- ماذا حدث؟.

- طليقتك الحمقاء كانت تراقب أباها خلسةً، وعرفت مكان السرداب وكيف تهبط إليه، ثم أعجبتها واحدةٌ من هاتَين الكرتَين، وأخذتها.

سأله طلال، وهو يُجاهد لكيلا ينجرف في نهر العدم:

- وما هي هذه الكرة؟.

- شكل من أشكال الطاقة القديمة، من حضارة سابقةٍ لوجود البشر أنفسهم، ولأن طليقتك حمقاء فقد حطّمت تلك الكرة، وهي تطاردك، بعد أن ضبطتك تخونها في شقّتك القديمة، وكنتما قد اتفقتما على العودة للمرة الثالثة لكي تتزوّجا مُجددًا!.

***

(١٩)

بدا الارتباك على وعي طلال وهو يجول في العتمة الدّامسة. ماذا يقصد بالضبط؟

سمع بلالًا يقول له:

بالمناسبة: لقد وعدتك بأن أرحل عن عائلتك الصغيرة، وسأفعل ذلك، لكنّي لن أسحب الدود من أجسادهم، لأنه في الواقع لا توجد طريقة لسحبه. ما دامت الدودة قد استقرت في جسد المُضيف، فستظل فيه حتى يموت هذا الأخير، أو أموت أنا!.

وأطلق ضحكةً شامتةً تردّدت في ردهات وعيهما المُشترك، وبلال يواصل:

سأجعل الدود يتسبّب في جنونهم جميعًا!.

تعالى زئير الغضب بأعماق طلال ووعيه، حتى إنه راح يدور في ردهات الوعي الغامضة، لكن بلال كان في موقف الأقوى فلم يكترث له.

عائلته في خطر!.. يا لَلعجز الرهيب الذي يشعر به! عاد عقله مُجدّدًا لمشهد مطاردة أوار له، فيبدو أن ذلك المشهد مُختلقٌ في ذهن بلال، بناء على رواية أوار نفسها للقصة، وهي تحكيها لأبيها، وطبعًا كان هو موجودًا بطبيعة الحال يستمع بصمت ماكر، متنكرًا في شخصية بلال. يُستكمل المشهد الآن في وعيه هو: تدخل أوار شقته القديمة فتجده عاريًا يمارس الخيانة في أجلى صورها مع تلك الحسناء! تنصرف غاضبة. يتبعها هو بسيّارته لكي يمتصّ غضبها الرهيب،

لكنّها تدفع سيارتها في سيارته جانبًا على الطريق، ثم تمسك بالكرة الحمراء التي أخذتها سابقًا، وتضربه بها من نافذة سيارتها المفتوحة، فتختلُّ عجلة القيادة في يده، وينفجر ضوء لامع في فراغ السيارة، التي تتوقف بعد أن ارتطمت بعمود إنارة! رمقت أوار سيارة طلال بمقت وقادت سيارتها عائدة للفيلا بكل هدوء. شعر طلال بالدهشة. هذا لم يحدث بكل تأكيد. هو لم يخن أوار بالفعل، بل هي تهمةٌ مُلفقةٌ، و.....

ولأنه صار مجرد قوة من التركيز العقلي، فقد راح يتذكر بعض المشاهد.

***

"ما دفعني لقبول الدعوة هو الفضول، والفضول قتل القط كما يقول الفرنسيون".

***

فيلا قديمة هي، كما أخبره ظافر نفسه في ساعة صفاء نادرة؛ بُنيت منذ ثلاثين سنة أو أكثر، وكانت المنطقة نفسها خلاءً إلا من بيتٍ قديمٍ هو بيت ظافر نفسه، أو بيت عائلته على وجه الدقة، وأنه قرّر هدمه وبناءه من جديد على الطراز الأوروبي، الذي لم يكن مألوفًا، وقد كلّف أحد المهندسين الأجانب في ذلك، وهو فرناندو خوسيه، والذي....

***

"لقد قام فرناند الإسباني بجهد عظيم في التخطيط لتلك الفيلا".

كاد يخبره طلال أنه فرناندو وليس فرناند، ثم قال لنفسه أنه لا فائدة، سيظل كما هو، أحمق!

***

كان المهندس الإسباني فرناند خوسيه رجلًا في مقتبل الخمسينات، ترك بلده منذ سنواتِ حكمِ الجنرال المستبدّ أرانكو، واستقر في...

***

قال ظافر مبتسمًا:

- خبرتي في الحياة علمتني أن أسوأ الصفات أن تضع نفسك على الحياد. أنتَ تُمارس خيانةً من نوع خاص، خيانةً لا يوجد عليها دليل دامغ، وقد انتظرت سنوات طوال أملًا في أن تتخلص من ذلك الداء، لكنك لم تفعل. ابنتي تحبك فعلًا، لكن هل تتصور أنها ستكون سعيدة حين تعلم أن قلبك يتنقل بين أخريات؟ لا أظن. لذا كان عليّ أن أدفع الأمور لتتطور قليلًا، أن "تبدو" خائنًا متلبسًا بخيانتك أمامها. نعم، أنا من دبرت كل شيء من أجل أن تستريح وتتخذ قرارًا، لكن في نفس الوقت أنت من فعلت ذلك بنفسك فيما بعد، لذا لا تلومَنّ أحدًا سواها.

***

تمتمت أوار بعد برهة:

- هل تشعر بالندم بعد الذي فعلته؟.

***

تدخل أوار شقته القديمة فتجده عاريًا يمارس الخيانة في أجلى صورها مع تلك الحسناء! تنصرف غاضبة. يتبعها هو بسيارته لكي يمتصّ غضبها الرهيب، لكنّها تدفع سيارتها في سيارته جانبًا على الطريق، ثم تُمسك بالكرة الحمراء التي أخذتها سابقًا، وتضربه بها من نافذة سيارتها المفتوحة، فتختل عجلة القيادة في يده، وينفجر ضوء لامع في فراغ السيارة، التي تتوقف بعد أن ارتطمت بعمود إنارة!

***

أشاحت بوجهها وقالت ببرود:

- ألا تخشى أن تزكمَ أنوفهم رائحة خيانتك؟.

انفجر فيها:

- ماذا دهاكِ أيتها الحمقاء؟ لماذا تعامليننني هكذا؟.

قالت بمقت:

- أكثر ما أكرهه هو خروجك من تلك الحادثة حيًا. موتك فحسب كان يمكن أن يجعلني أسامحك قليلًا.

***

وهتف طلال في أعماق العتمة، حتى إن السيد نفسه (الذي لم يعد السيد، بل صار مُرتديًا جسد طلال) قد سمعه وهو يصرخ:

- أمعقول هذا؟ أنا في عالم موازٍ!.

ويبدو أن السيد قد سمع صراخه. قال بخشونة:

- بماذا تُخرِّف؟.

- أنا في عالم موازٍ. هذا ليس عالمي الحقيقي!.

- هل أصابك الجنون؟.

- يمكنك الاطلاع على ذكرياتي، كما يمكنني أن أرى ذكرياتك.

- لا، لا يمكن حدوث هذا. حين أحتل جسدًا تظل ذاكرةُ المُضيف محجوبةً، لا أعرف السبب في ذلك، لكنه طوال الخمس دقائق التي أحتل فيها الجسد المضيف قبل أن ينفجر، تظل ذاكرته مَحميّة!.

قال طلال بخبث:

- يمكنني أن أشرح لك مفهوم العالم الموازي قبل أن تنفجر أنت الآخر!.

قال السيد بصلف:

- تَحوُّلك لمجرد وعيٍ بائس في العتمة حوَّلَكَ لمجنون!.

ضحك طلال:

- تحمَّلْني قليلًا. هناك نظرية تتحدَّث عن عوالم مُوازية، عَوالم نسخة طبقِ الأصل من بعضها البعض، لكنّها تغصُّ بالاحتمالات. في عالَمي لم أخُنْ أوار بجسدي، لكن نسختي في هذا العالم خانَتها بالفعل! في عالمي طلّقْتُ أوار مرة واحدة. هنا طلّقَها شبيهي عدةَ مرات! في عالمي اسم المُهندس الذي بنى هذه الفيلا هو فرناندو خوسيه. في هذا العالم اسمه فرناند خوسيه. إسبانيا في عالمي حكمَها جنرال بقبضة من حديد اسمه فرانكو. في هذا العالم اسمه

أرانكو. "الفضول قتل القطّ" في عالمي مجرّد مقولة إنجليزية. في هذا العالم تُنسَب للفرنسيين.

قال السيد بسخرية:

- وأين ذهب شبيهُك؟.

لو كان لطلال رأس مادي لهزّها بامتعاض وهو يقول:

- ألم تفهم بعدُ أيها الغبي؟! لقد تسبب انفجار الكرة الحمراء في حدوث شرخ في بنية العوالم الموازية. لقد انتقلتُ إلى عالَم شبيهي، بينما انتقل هو إلى عالَمي!.

قال السيد باستهزاء:

- لا يهمُّني. فلتذهب أنت وشبيهُك للجحيم! لا يعنيني، فقد انتصرتُ.

- ما زلتَ لم تفهم، أليس كذلك؟ أنت من قلت منذ قليل أنّك من هذا العالَم ومن قلب طبيعته. لسوء حظك أنك اخترتَ الجسدَ الوحيد في العالَم الذي ليس منه أصلًا لكي يحتوي وعيَك! هل تفهم معنى ذلك؟.

أحسّ بلال بذعر وهو يصرخ:

- لاااااااااا!.

وانفجر الوعي بداخل جسد طلال، انفجارًا أشدّ وأقسى من انفجار النجوم ذاتها، بما يتناسب مع كائن مثله هو للطاقة أقرب!

واستعاد طلال جسده، وقد وجد نفسه مُستلقيًا على الأرض وهو يلهث مُحدّقًا في السقف المعدني، وراح يتحسّس جسدَه غير

مُصدّقٍ. قال وهو يلهث:

- أخبرتُك أيها الوغد بأن لديك خمسَ دقائق، لكنك لم تصدقني!.

واستدار طلال إلى فدوى وأوار وخالد الراقدِين أرضًا، وأمكنه أن يرى ثلاث دودات رماديات تخرج من أجسادهم، وقد تحزّرن بعد موت سيدهنّ. قال بحزن وأسى:

- إذًا أنتم لستم هم!.

وأراح جسده للجدار، وهو يسترجع ذكريات عائلته الحقيقية، وفجأةً، لمح ذلك الشخص الذي يقترب منه. قال بدهشة:

- الضابط أحمد!.

تهاوى أحمد جالسًا بجواره والدمُ ينزف منه:

- لو لم أُشاهد كل شيء بعينيّ لم أكن لأصدق.

سأله طلال:

- ماذا رأيت بالضبط؟.

- لقد كنتُ أتتبع فدوى وأوار وخالد من حجرة المكتب.

- ماذا ستفعل الآن؟.

- سأملأ الأوراق الرسمية بما يتناسب مع ضميري. اطمئنّ.

أومأ طلال برأسه. ونهض أحمد لمُزاولة عمله. نظر طلال في ساعته. لقد أشرقت الشمس دون شك. لقد كانت ليلةً طويلةً جدًا. توجّه للكرة الحمراء الداكنة. ألقى عليها نظرة، ثم حوّل بصره لعائلته،

بل عائلة شبيهه، لكن لماذا يشعر نحوها بحب؟ هل العائلة برابطة الدم أم يتّسع المفهوم ليأخذ مساحةً شاسعةً من العلاقات البشرية؟

حطّم طلال الكرة في الجدار، وتألّق ضوء مبهر، وأمكنه أن يرى جدارًا شفّافًا يطل على عالمه الحقيقي الذي أتى منه.

كان عليه أن يتّخذ قرارًا الآن، أن يتقدّم بخطوة أخرى وأخيرة للأمام ليعبر لعالمه، أو أن يأخذ خطوة للخلف مُبتعدًا عن الإغراء المُتمثّل أمامه، والذي يقول له بأن عائلته الحقيقية تنتظره على الجانب الآخر؟ لكن هل تنتظره فعلًا؟ هل يُمكن أن يكون شبيهُه قد عقد رابطًا معها واعتبرها عائلتَه؟ هل يمكث في غير عالمه، ويمنح حبًا غير مشروط لعائلته الجديدة، برغم أنه ليس من يظنونه بالفعل؟

في عالمه رفضته زوجته وابنُه، وأخيرًا ابنتُه، وقد أثمرت ألاعيب ظافر هناك في فصلهم عنه، وتحويله لوحش في نظرهم! هل ذلك بسبب وجود وحش آخر يُدعى السيد تحت قبو فيلته، أم لأسباب أخرى؟

كان ذهنه مشوشًا للحظة من تعدد الاحتمالات، وتشعّب الأسئلة، ومن احتجاب الأجوبة، وقد تبدّى تردُّد رهيبٌ على وجهه، وهو يحرّك قدمه اليمنى للأمام، ثم يعيدها لمكانها مرة أخرى. ثم يحرك قدمه للخلف، ثم يعيدها لمكانها مرة أخرى!

ثم تبدت له الحقيقة واضحةً غيرَ منقوصة.

وابتسم طلال وقد اتخذ قراره، وهو يحدّق إلى الشرخ العجيب في بنية الواقع، والذي راح يتناقص، وكأنه يطلب منه أن يتخذ قرارًا سريعًا قبل أن ينغلق للأبد!

أخذ طلال نفسًا عميقًا، ثم حرّك قدمه لكي يخطو خطوته الأخيرة!

***

إصدارات الكاتب

- غسق
- ليل السوالف
- ثم هوى
- الليلة لن أنتظر شيئًا
- شيء يشبه النسيان
- اختلال
- معصية ليلى
- اليسع
- وحدها بدرية تعرف
- المحظور
- لم يره أحد
- مقتل زوج خائن
- مفتاح جهنم
- السرعوف